خبرات أنثوية

قصص قصيرة

قاسم مسعد عليوة

لوحة الغـلاف : للفنان جمال عبد الناصر

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥٢٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N977-291-069 -1

السلسلة الأدبية

رئيس المركز
على عبد الحميد

مدير المركز
محمود عبد الحميد

المشرف العام
على السلسلة الأدبية
خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ :عبير كمال خضر

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

قاسم مسعد عليوة

خبرات أنثوية

قصص قصيرة

نشر عدد من قصص هذه
المجموعة خلال عامى
١٩٩٥ حتى ١٩٩٧م فى
عدد من الدوريات منها :

- أخبار الأدب
- الثقافة الجديدة
- القصة
- حريتى
- الأهالى
- المساء
- الجمهورية
- الأهرام المسائى
- راقود
- سيداتى وسادتى
- ابداعات بورسعيدية

الاهـــــــداء :

إلى ثلاث سيدات فضليات
نفثن فىّ من أرواحهن :
جدتى لأمى ..
وأمى ..
وزوجتى

قاسم مسعد عليوة

"ليست نساؤكُم حُلّى وجواهرا
خوفَ الضياع تُصانُ فى الأحقاق"

حافظ ابراهيم

مدرسة البنات ببورسعيد

٢٩ مايو ١٩١٠م

أراجيح الضوء فى النجم البازغة

١- انبهـــــار
٢- ياسمينـــة
٣- كم هن بريئات يا ربى
٤- أختـــان
٥- انفـــلات
٦- بنت وسلتان

انبهـــــــار

اندفعن مبهورات إلى الشرفة المُنَّداة بتباشير المطر. تطلعن إلى قوس قزح إذ يحتوى بيوتات المدينة ويصعد فوق البحر ثم يعود فينثنى ويغوص فى الأفق البعيد .. هناك .. حيث لا يعرفن أين.. أحصين الألوان المتجاورة وتواثبن داخل الشرفة وملن إلى السور.مددن أذرعهن القصيرة ، وفردن أكفهن الصغيرة حتى أمسكن بطرف القوس . جاءت إحداهن بمقعد فتواثبن فوقه واعتلين السور.. تشبثن بالقوس وحبين صاعدات محاذرات ، الواحدة منهن تلو الأخرى . ولما تمكنَّ منه، واستقرت أنفاسهن ، رُحن يشقشقن ويضحكن ويصحن مأخوذات إذ يرين الأسطح المُنَّداة وقد صغرت وبعدت وأصبحت كتلك التى يصنعنها بأيديهن فى حصص الأشغال. وعندما وصلن إلى القمة ، رأين السحب حبلى بالمطر ، وسمعن أصواتها إذ تئن ، ورأين البحر فراشاً رصاصياً مغطى بالمشمع استعداداً لاستقبال نفثات المطر . وإذ يلمحن أسراب النوارس وهى تطرز الفراغ من حولهن ، تواثبن إلى الفراغ ورفرفن بأذرعهن . سابقنها ودخلن فى زمرتها وحلقن فى كل اتجاه . إلا أن النوارس كانت تنقض على المشمع وتنقره لتلتقط الأسماك المتخفية تحته قلن البحر سيبتل لو أمطرت السحب، وقلن النوارس تلعب لعبة سخيفة. ورجعن إلى القوس مغاضبات وانزلقن فوقه عائدات إلى الشرفة، وهاهن يقفن منتظرات سقوط المطر الذى سيغسل البيوت ويبلل النوارس والأسماك المختبئة تحت سطح البحر .

ياسمينـــــة

رقيقة هى الأصابع التى أخذت الياسمينة منى . أرَقُّ منها النظرة التى أوسعت ما بين الجفون وأطلقت الدهشة الطفلية من سواد عينيها . فرحة متوثبة شقشقت .

- لى أنا ؟

- نعم ..لك أنت .

من فورها تركتنى وَجَرتْ . هناك توقفتْ . داخل المساحة الجرداء المحصورة بالنجيل الفاصل بين سور المدرسة والأسفلت. التمّت صويحباتها ومثلها شقشقن . تلاطمت حقائبهن فرمينها والتففن حولها . انثنت البنت ففهمتُ أنها تغرسها. رؤوسهن بدورها انثنت ، والفيونكات فى الضفائر تأرجحت .أى شئ يفعلن ؟ .. فى أى أمر يفكرن ؟ ..فجأة انتفضن وانتثرن .. بنات هنا وأخريات هناك . عدن إلى حيث سوت البنت التراب بالكاد . الماء يقطر من أكفهن وأفواههن . نعم هو الماء . أكف مقعرة وأفواه منبعجة . بضع زخّات أسقطنها فوقها . زخّات مضطربة وقطرات شعثاء . ألقينها قبل أن تنسرب أو نفثها قبل أن يشرقن .

مبتلة مرتعشة مادت الياسمينة وسط البركة التى صنعنها . فردن أذرعهن ودُرن حولها . صفقن وحجلن وتغنين بكلمات حلوة رشيقة . أفهم تماماً ما يدور أمامى لكنى ظللت فى مكانى موزعاً بين الفرح والأسى ، فالياسمينة فى طريقها إلى الذبول لا محالة . ليت المعجزة تتحقق وتستعصى على الذبول ليتها ...

كم هن بريئات يا ربى

فى كل مكان تَرَاهُنَّ . تَـلفُظهُنَّ أبواب البيوت فيتناثرن فى الشوراع ويمرحن فوق الأرصفة . تكتظ بهن الأتوبيسات والميكروباصات ويتزاحمن إذ يهبطن منها بأجسادهن النحيلة وحقائبهن الثقيلة . يتوقفن أمام المحلات التى تبتلع قروشهن القليلة ويتكاثفن باتجاه مدارسهن مثرثرات، مشقشقات، منهن الحذرات ، ومنهن اللاهيات . قد تخجل إحداهن ، وقد ترفع صوتها مستعيدة درس المحفوظات أو مقدمة المسلسل التليفزيونى فلا تلفت نظرك ، فكلهن متشابهات الثياب ، لكنك ملتفت لا محالة إلى هاتيك المكحولات المخضبات المتبخترات بفساتينهن المزركشة ، المتباهيات بالفيونكات وتسريحات شعورهن قد يتمهلن فى مشيهن ، وقد يبدين متعجلات ، لكنهن - كما لاحظتَ - حريصات على عدم افساد ما نعبت الأمهات فى رسمة . فإلى الحفل هن ذاهبات ، سيغنين أو يعزفن ، قد يرقصن أو يقمن بأداء بعض الأدوار التمثيلية ، ولربما قدمن باقات الزهور لكبار الزوار ، قد ينسين ما حفظنه وتدربن عليه فيلوحن لذويهن أو ينادين عليهم فتحدث بعض الارتباكات الصغيرة وتعلو أصوات الموجهين، ونرى الحركات العصبية لأيديهم من وراء الستار ، وإنْ هى إلا لحظات حتى ينتظم الأداء ، ويعدن زهرات يانعات تفتقت بالكاد عن أكمامها ، سنهتف ، وتقول كم هن بريئات يا ربى ، كم هن ساذجات ، حتى تلك التى تسرى فى خفة وتقرص زميلتها وتجرى ، وتفعل ما تفعل

فى براءة يا ربى ، وتلك التى تشد شعر التى داست على قدمها ، تشده فى براءة يا ربى . إنّ قلبك يكاد يشف من فرط اعجابك بهن ، وبأحلامهن البريئة ، لكنك قد تنظر - مثلى - إلى وجوه المدرسات والأمهات والنسوة الجالسات يتفرجن عليهن فى مزيج من الفرح والحسرة ، وقد تستعرض أعينهن الخبيرة وأجسادهن المترهلة ، فتسأل أين ذهبت براءتهن القديمة .. يا ربى .

اختـــــــان

هما الآن تستعرضان ما ينبغى استعراضه ، الفيونكات والفساتين والأشياء الحلوة التى جاءتْ بها ماما . أخرجتْ الصغرى جورب الكبرى من كيسه ، ويكمها مسحتْ الكبرى العفار من فوق حذاء الصغرى . الصغرى رتبتْ للكبرى الورود التى ستضعها فى شعرها ومجموعة السلاسل التى ستختار منها واحدة لعنقها ، والكبرى مشطت شعر الصغرى وأعطتها توكة على شكل فراشة . الصغرى تقول :"الفراشة؟! .. لا .. هات عنقود العنب " الكبرى تضحك :" عنقود العنب مكسور يا فالحة " .تتذكر الصغرى أنها هى التى كسرته فتخبئ وجهها بين كفيها خجلاً ، وبطيئاً بطيئاً تُفَرِّجُ بين أصابعها . وتنظر لأختها والفراشة البلاستيكية ، والأم خارج شق الباب ، تفيض عيناها بالفرحة . قلبها يهتز وفى جسمها رعدة .

انفـــــــلات

انفلت البالون من أصابع مروة .

انفلتت مروة من أصابع أبيها .

انفلتت الصغيرات من أصابع ذويهن .

تحولت الحديقة إلى ساحة للانفلات والمطاردة ..

إلا أن البالون انطلق صوب البعيد .. الأعلى .. فيما كان هناك سور وجاذبية وأولياء للأمور .

بنـــت وســـلتان

مشـدودة الظهر بلا ردفـين أو ثنيات تمـشى . أضواء الصوديـوم تتدفق فوقنا نهـيرات من قيح وصـديد . لا أحد سوانا وخـفقات الريح والضـباب الذى يلتهم العمائر البعيدة .ينسل ثوبها الطويل حـتى كعبيها .لكأنه قميص للنوم. الكمان طويلان يخفـيان الكفين القابضتـين على سلتين من خوص . الحزام واسع ، عريض وعقدته مهدلة . طفلة . هى طفلة .. شعرها مجدول فى ضفيرة واحدة تتأرجح ثم تتسع لتـنتهى بهلال كبير . هذا القرط لا يكون لطفلة . لا يمكن أن يكون لطفلة .. حشت الخطى ووازيتـها فلم تشعر بى . لم تبـدر منها نأمـة .. مجرد نأمـة . القرط وحـشى النقوش ، والخـد أبيض شمعى . على صفحته زغب خفيف ، نافر ومتوهج بالصوديوم .

قلتُ : " هذه البنت جديـرة بأن أملى عينّى منها " . تقـدمتُ عدداً كافياً من الخطوات ثم اسـتـدرت . صـدرُناهد ووجـه شـاحبُ مـدور . شـدتنى العـينان ، واسـعتـان . رمـاديتـان .. يا إلهى .. عـيناها رمـاديتـان .. صفـرة الصوديوم مطـبوعة فـوقهمـا ، ومع هذا تأكد لى أنهـما رمـاديتان ". هى لا ترانى " . هكذا خمنت . لم تلتفت. لم ترمش . استمـرت فى مشيها . نفس الخطوة . نفس الملامح . ما من اختلاجة تدل على أنها رأتنى .

تعمدتُ أن أقف أمامهـا . فى مواجهتها بالتمام . فكرتُ فـيما عساى أن أقولـه لها إن كلمـتنى . لكنها لم تكـلمنى . ولم تغيـر من اتجاه خطواتـها.

هجستُ :" هى نائمة أو عمياء " خطوتان وتصطدم بى . حركتُ كفّى أمام عينيها فلم يطرف لها جفن .. كيف تمشى فى هذا الليل بدون عصاة أو رفيق؟... ملتُ عنها فاستمرت فى مشيها . اقتربنا من الضباب أو اقترب هو منا . ثقيلٌ وواطئ . يلتهم البيوت وأعمدة الصوديوم والشجيرات العارية . قفزتُ عدة قفزات وأعطيت الضباب ظهرى . فتحتُ ذراعى لا تلقفها . ماذا عساه أن يحدث إن ابتعلها ؟ .. خطواتها ثابتة مستقيمة لا تزال ." لو أبطأتُ فى مشيها .. " ، " لو أمكننى أن أدفع التقاءهما .."." هتفتُ: "قفى .. ارجعى .. الضباب " . برقت عيناها . نعم برقتا فارتجفتُ .رماديتان . رماديتان وعميقتان . شئ ما أرخى ذراعى وأزاحنى جانباً . هى ترانى . بالتأكيد ترانى. رأيت ظلى على البؤبؤين. بالرغم من العتمة والضباب وصفرة الصوديوم وجدتُ نفسى بداخلهما فارتجفت من فرعى إلى إخمص قدمى.اختلجتُ.هذا القزم المحاصر بالصوديوم والرمادى هو أنا.

طال الضباب ظهرى فتراجعتُ فيما تقدمت هى بجلبابها وكميها وسلتى الخوص ومشيتها الثابتة ومضت . صافح الضباب الذى فاضت عليه نهيرات القيح والصديد ، وجهها وصدرها . التف حول شعرها . أطراف الضفيرة الوحيدة ما تزال تهتز ، والظهر الذى بلا ثنيات أو ردفين يدخل فى الضباب ، الكُمّان الطويلان والحزام المهدل وسلتا الخوص . هى طفلة .. بالقطع هى طفلة . يحوطها الضباب فيبزغ السؤال : " ترى ماذا عساها تحمل فى سليتها ؟ " .

اقمار مراوغة تختبئ تحت قمصان البنات

١- حنـــــو
٢- حمّـــام
٣- صـــورة
٤- البـــراح
٥- نقـــاء
٦- الزائـــرة

حنـــــو

يمامتان نزقتان حطتا على صدر البنتْ.فَرحتْ البنتُ وداعبتهما بحنو. وقفتْ أمام المرآة ، وراحتْ تنظر إليهما وهما مستكنتين بين راحتيها . دفء لذيذ سرى فى ذراعيها وورَّد خديها . وإذ تناغيهما وتهدهدهما اكتشفتْ أن عينيها تبرقان بشئ جديد لم تعهده من قبل. أحسَّتْ بجلبة أمها فى الخارج ، فأسرعتْ باخفائهما داخل قميصها واندست تحت الأغطية . دخلت الأم ورأتْ ثنيات الجسم وقد تمرد على ثقل الأغطية. دارتْ هنا وهناك تلملم أشياء البنت وترتبها. وقفتْ على رأسها تتأمل الخدين الموردين والعينيين الناعستين والبنتُ فى انتظار لاهث . سوَّتْ الأم الأغطية وأزاحت الضفيرة إلى ما وراء العنق ثم خرجتْ . من فورها وثبتْ البنت إلى الباب ، أحكمتْ إغلاقه وفتحت قميصها ، ثم أخرجتْ اليمامتين وراحتْ تداعبهما بحنو .

حمّـــــــام

تخجل حين تخلع مـلابـسها فى الحمّام . تخـشى النظر إلى جسدها فى المـرآة . قد تنظر إلى وجـهها وشعـرها المبلل ، لكن ليس قـبل أن يُغطى البخر صـفحتهـا . حين تقترب أصـابعها من مواطئ الأنوثة فـيها تسحـبها بسرعـة . تقتحم الكهـرباء رغاوى الصابون وتنفـذ إلى دمائها وتصـعد إلى الدماغ والعينين. ما تزال لسعات الحزام الذى مـزقته أمها على لحمها وهى طفلة تُوجع ذاكرتها ... " سأكويـك بالنار " .. " حَرَّمتُ يا ماما ، حَرَّمتُ " .. " سأدهن حلقك بالشطة " .. " حَـرَّمتُ والنبى ، حَرَّمتُ " .. " هذه المرة أوقفت ميـاه الدُش ومسحتْ غبشـة المرآة ونظرت . مرتعشة خـائفة مدتْ كفيها وقربتْ أصابعها ولمستْ . اشتعل جسدها وغامتْ عيناها . استندتْ بظهـرها إلى القيـشانى مـتلاحـقة الأنفـاس دائخة . لحظات ثم تمـالكتْ . عقصتْ شعرها وأفسحتْ بين ساقيها ووقفتْ أمام المرآة طويلاً ، وأمها فى الخارج تفكر فى الحجة التى ستقتحم بها باب الحمّام .

صـــــورة

ذاقتْ طعم القبلة الأولى ، فى غفلة من الأهل ومن الناس ومن القمر المتلصص . استدفأتْ بالحضن الأول ، واستمتعتْ بالهمسات الناعمة ، وإذ ينعمان بوقتهما المختلس ، قالت : " أنا لك .. افعل بى ما تشاء " . وهاهى - من لحظتها - منزوية فى ركنها المعتم تبكى نفسها وتنتظر. ترفع بصرها إلى أبيها وأخوتها إذ يطلون عليها من الصورة المعلقة فى مواجهتها، وتحاول أن تقرأ فى ملامحهم ما عساهم أن يفعلوه لو علموا.

البـــــــراح

تنفستْ بعمق وهى تقف وسط كل هذا البراح.صمت الطبيعة يحتويها ، وأسراب اليمام تظللها ، تزركش قبة السماء ، وتميد صاعدة هابطة فى دوائر لها كرانيش ، والشمس المستحية تتخفى وراء الأشجار البعيدة . لعلها خجلى من النظر إليها . وهى وحدها وسط كل هذه الخضرة ، وسط كل هذه الزهور ، وحدها ولا أحد سواها فى هذا الخلاء . أحسن أبواها لمَّا جاءا بها لزيارة عمتها. " كم أنت طيبة ورائعة يا عمتى " ." تعيشين وسط هذه البهجة وتنعمين بكل هذا الجمال ". " إن لم تكن هذه هى الجنة فماذا عساها أن تكون ؟ "

أحستْ بجسمها خفيفاً فَجَرَتْ ولَفَّتْ ودارتْ . أطاحتْ بحذائها وفكتْ شعرها . فتحتْ صدرها وأرجحتْ .فستانها آه لو طارتْ مثلما تطير هذه اليمامات . ارتمتْ على الأرض فأحاطتْ بها الزروع . غنَّتْ فجاوبها الكروان . قفزتْ فتحلقتها الفراشات، ولما وقفتْ توائبت حولها الضفادع . خضراء . مرحة . فردتْ كفاً فحطَّتْ عليها فرس النبى . تهافتت روحها : " آه يا ربى يا مبدع كل هذه الخلائق ". وضعتْ الفرسة على ورقة خضراء وانشتْ فوق زهرة. نحلة مشغولة بامتصاص الرحيق أمسكت فرع صفصافة واستهواها التأرجح فوق الترعة فتأرجحت ، رؤوس الأسماك علَتْ . شقت فستانها المقلوب فى الماء ، ورَنّت .صورتها تسبح أسفل منها . معكوسة لكن فَتَّانة . مستْ الماء بإبهامها فطرطش وامتد خيطان أبيضان

طويلان على جانبيهما . تقافزت سميكات صغيرة فالتمعت بالفضى والأحمر ثم غطستْ .

شدتها الأوزات التى مالتْ عنها عساليج السيسبان فوثبتْ إليها صاحتْ وفتحتْ أجنحتها وطار زغبٌ وارتمين على صفحة الماء . رأتْ رأس عنزة فاستدارتْ نحوها . اكتشفت جَدْياً يلاقحها . جَدْى له لحية مرسلة وقرنان ملتفان . رأياها فجفلا وجريا وراء أشجار التوت والجميز.

تفجرت أشياء بداخلها فطفقتْ تتشمم الزهر وتجرى تفتح ذراعيها وتنكش شعرها وتُصدر أصواتاً غير مفهومة . هو هو.. هى هى ..هاها . خاصرتْ نفسها ورقصتْ ، تشقلبتْ . ضربتْ صدرها وردفيها. هصرت ثديها بجذوع الأشجار وتمرغت فوق أكوام القش ، وحينما حط أبو قردان أمامها بجسمه الأبيض الرشيق ورقبته النحيلة ، توقفت . تأملت عينيه ومنقاره ثم جثتْ على ركبتها ، رفعت وجهها باتجاه السماء واخترقت بعينيها زركشات اليمام . بمنتصف القبة التى اصطبغت بالأحمر تعلقتا. وبطيئاً بطيئاً رفعتْ كفيها وتضرعتْ : " لا تعيدنى يا ربى إلى بيتى فى تلك المدينة . ابقنى هنا . امتنى هنا . ابعثنى من هنا أرجوك .. أرجوك يا ربى " .

ولأن الشمس كانت قد غادرتْ الخمائل البعيدة ، وانحدرت وراء الخضرة التى اغمقت ، فقد لمَّت شعرها واغلقتْ صدرها، سَوَّتْ فستانها والتقطتْ حذاءها ، وعادتْ خفيفة متوثبة إلى دار عمتها .

فوجئت بالعيلة واللمة . أبوها وأمها وعمتها وكل الأقارب على عتبة الباب يجلسون . استرابت. " كأنما هم فى انتظارى ". أبوها منكس الرأس وهم متوترون . نطقت أمها : " اخص عليك بنت .. من بكرة حا نسافر ".

لم تفهم . نظرتْ إليهم تستطقهم "، فقالت عمتها :" بصراحة كدة ، مفيش حدانا بنت تعمل اللى عملتيه وتفرَّج علينا أهل الكفر كُلَّهم ". صكَّتْ صدرها وانكمشت خجلى ، وأمام عيونهم المفتوحة أغلقتْ عينيها على سؤال مُحير"أين تراهم أهل الكَفْر كانوا يختبئون؟ ".

نقـــــــاء

لو تجسد الطهـر فى صورة تشبهنى لكنت أنت . هـل تكونين إلا ملاكاً خـصنى الله بك ليـرينى من آيات فـضله مـا يُعـين على نفض أدران البـيت والمرقص والشـارع ؟ .. يا ابنة النور اعذرينى إذا مـا قَصَّـرْتُ فى حقك ، واعفينى من لـوم عينيك إن عجز جسـمى عن التطواف الأبدى حولك ، أو عاودتْ قدماى الجنوح إلى مواطن الزلل . اسمحى لى بقليل من الانفلات، قليل من الوسخ فـما أنا إلا بنت مسـكينة من لحم ودم ومعـدة وطين .. أما أنت .. آه .. أنت .. أُجِلُّك .. كم أُجِلُّك . ربـما صـورك اللهُ مـثل هيئـتى ، لكن ما من حـسن إلا هو فيك . ما من خِلَّة طيبـة إلا ألمحها فى مـحياك .. فى كل ما يبـين من قامتك يسـتكين النور .. نور بسـيط .. هادئ . نور غـير قابل للخدش من ظل أو من عتمـة . فى سكناتك يتضوع المسك . أترينـنى أسكن فؤادك يـوماً . كم أنا ظمأى لريك ، فـطهرينى وخذينى إلـى نقائك . خذينى من ظلمة البيت والمرقص والشـارع.كم هما جميلتان هاتان اليدين البريئتين. مديهـما إلىّ واحتـضنينى . لفى علىّ جناحيـك وأريحينى على صدرك . هل هناك أطيب من أن تريح مـعذبة مثلى رأسهـا على صدر ملاك رائع النقاء مثلك ، لكن مهلاً .. إلى أين تذهبين بأصابعك . آه .. اتركينى .. يا إلهى ..كل هذا الشبق فى عينيك؟..من أنت ؟..من تكونين؟.. ابتعدى عنى.. اتركينى.. بى ما بى ، لكنى أبداً لا أفعل ما ترغبى ..

الزائـــــرة

عندما كانتْ تأتى لزيارتهم كان مجرد طفل . طفل ممتلئ يتباهى أبواه بأنه الوحيد بين أخوته المرتب المهندم الذى يسمع الكلام. أما هى فكانت شيئاً كبيراً ورشيقاً . ترتدى التايير وتمسك حقيبة جميلة تخرج منها أشياء حلوة كثيرة . كراملة وشيكولاته وأشياء تقرقش وتمتط . قد تخرج إيضاً مناديل ملونة تمسح بها ما يكون قد علق أو التصق بشفتيه أو أنفه أو ذقنه .

كلام كثير يقال فى الصالون عندما تجئ ، فيجلس إليهم واضعاً كفيه على ركبتيه أو عاقداً ذراعيه على صدره ولا يفهم شيئاً . لكن ما تقوله يخرج من فمها منمنماً حلواً ، وأخوته الأغبياء يحرمون أنفسهم من هذه الحلاوة . يختبئون منها ويلعبون بعرائسهم . لو جاءوا لفهموا وأفهموه ، كانت تستأذن من أبويه وتجلسة إلى جوارها . تمسح شعره وتُربت على ظهره وتعطيه بأصابعها الطويلة ما تجود به الحقيبة فيشكرها ويحنى رأسه خفراً وخجلاً .

وقد يحدث أن يدفعه أبواه – ما دام هو الوحيد الذى يجلس إليها – لاستقبالها ريثما يفرغان لها ، أو يتركانه لها لينهضا إلى بائع اللبن الذى يتربصان به لأنه بدأ ينقص المكيال ، أو تكون سعدية الخدامة قد فتحت لها وأبوه وأمه غير موجودين فى البيت . فى مثل هذه الحالات كانت تناديه " تعال جنبى .. اقترب " وتشير إليه بأصابعها الطويلة ، وبالحقيبة المفتوحة تغريه ، فيأتيها طائعاً مستسلماً لتضعه فوق حجرها . من فوره يشعر أنه قد

وقع فى قبضتها ، فيهتز ويحاول التملص بينما هى تمط فى ابتسامتها وتنهمر عليه تقبيلاً، وتمد يدها إلى بنطلونه. ما تفعله غامض لكنه لا يستطيع التأوه ، ففمها لا يغادر فمه ، ولا يمكنه ضربها بكوعه ، فذراعها تمنع ذراعيه من الحركة . لا يعرف كيف يفر ، ولا يجرؤ على تصرف طائش يغضب أباه وأمه . ثم هى جميلة ، تقول كلاماً منمنماً حلواً، وحقيبتها ملأى بالمفاجآت.

لكنها ، كما يحدث دائماً ، ما أن تسمع صوتاً قادماً حتى ترفع رأسها وتفك ذراعها وتجلسه على الكنبة المجاورة، وبهدوء تخرج من الحقيبة مفاجآتها وتبدأ فى تحريك شفتيها بالكلام المنمنم الحلو . ولم يحدث أن عرف أحد سر التورد فى خديه ، ولا سبب الاضطراب فى ملابسها .

براعم الاقحوان إذ تتأود فوق المدرج

١- تنهيـــدة
٢- الكوتـــش
٣- عسل وكستناء
٤- شخبطـات
٥- ستـــــرة

تنهيـــــدة

أحببتُ الأستاذ . ما يقوله هو السحر . أدمنتُ الاستماع إلى حكاياته . عشقتُ البلاد التى زارها ، وهامتْ بطابع الحُسن فى ذقنه . لطالما غسلتْ بعينيها كفه وأزالتْ الطباشير اللعين من فوق أصابعه الجميلة .أصابعه التى تشرح وتفسر ، تنتفض وتسكن ، وتقول ما لا يقال . لكأنها تتكلم هذه الأصابع ، لكأنها تنطق . كم هو أنيق ومهذب . بعد أن ينتهى تجرى إلى الممسحة فتمسكها ، إلى إصبع الطباشير فتضمه ، إلى السبورة فتلمس خطوط أصابعه ، مَرّتْ هنا .. آه وهنا .. لكنه لا يعلم. تلتقط الأزهار الصغيرة وتشبكها فى شعرها تارة ، وفى قميصها أخرى. تُلقى بأشعار المحبين على مسمع منه . تسأله عن الجغرافيا فيجيب . عن تاريخ الأمم فيفيض . تسأله عن كل شئ .. عن المجّرات والشموس ، والقمر .. القمر المسهد مثلها . تود أن تسأله عن ليله . عن نهاره . من يطبخ له . من يسهر معه . ما سر هذه الكرمشات فى قميصه . ولماذا جرح ذقنه . لماذا مال خطه على السبورة . لكنها تخجل ولا تفعل أكثر من أن تُغلق عينيها عليه وتتنهد.

الكوتـــــش

سـاقاها طويلتـان ملفوفـتان . ترتـدى البنطلون . لا يذكر أحـد أنه رآها ترتدى فـسـتـانا أو جونلة . إن مـشتْ فهى تدب على الأرض دبـاً ، وإذا ما صعدتْ المُدَّرج أفـسح لها زملاؤها لعلمهم أنها ستقطع الدرجـات خمساً خـمسـاً . تلعب الرياضات العنيـفة .. التـايكوندو والكاراتيـه وترفع بعض الأثقال . شوهدت مراراً فى الجـمنزيوم وهى تلكم أكياس الرمل وبالونات التدريب وتـعتلى حلبة المـلاكمـة . يدعوها زمـلاؤها بالكوتش ، ويلقبـها الأساتذة بالخطيرة . إذا ما نشـبت مشاحنة يكفى أن تنهض ... فقط تنهض .. فـيبلع كل لـسـانه . يوم أن رأوها بالبلوزة والجيـب اندهشوا . ولمـا لم تنهض لفض مشاجـرة نشبتْ هجسوا وتهامسوا بـأن أمراً جللاً قد حدث . وحينمـا لمحوا آثاراً خفيـفة للأحمر الذى حـددتْ به شفتيـها أيقنوا أن فى الأمر رجلاً. ومن ساعتها لاحظوا أنها لم تعد تذهب إلى الجمنزيوم .

عســـــل وكستنـــــاء

عيناه عسليتان ، وشعرها كستنائى . وَدَّتْ لو قالتْ له : " أحب العسل " وتمنى أن يسألها :" لماذا الكستناء بعيد المنال " . لكن الرائحين والغادين شغلوا الفراغ فيما بينهما . هى جالسة فوق قاعدة الشئ الذى لا شكل له ، وهو مستند إلى الحائط بظهره . لاحتْ قامة الدكتور فى نهاية الممر فاندفعا مع المندفعين إلى باب المُدَرَّج . بينهما الكشاكيل وملفات الأبحاث والحقائب والأجساد المثرثرة . قبيل الباب تماسا . ضغطهما الزحام فتماسا . لا . التصقا . فالكتف بالكتف التحم . " عيناه عسليتان يا ربى " . " شعرها كستنائى يا إلهى"متجاورين صعدا المُدَرَّج، ومتلازمين انتحيا مكاناً وجلسا . زاحمهما الآخرون ،لكنهما حافظا على صفائهما وصمتهما والفراغ الضئيل فيما بينهما . على (البِنْش) تراصتْ الكشاكيل وملفات الأبحاث.فوق كشكولها وضعت كفا .طرية ، ناعمة ، لها أظافر مطلية بلون هادئ . مَدَّ كفه وأرقدها على (البِنْش) بين كشكوله وكشكولها . فردها على آخرها وأوسع ما بين الأصابع قدر استطاعته . زحف بها قليلاً ، وأصعد خنصره كعب كشكولها . الدكتور يقول كلاما لا يسمعانه .هو مشغول بخنصره وهى مشغولة بالانتظار . مَسَّ الخنصرَ إبهامها فأعطت وجهها المشتعل ، كل وجهها المشتعل للدكتور . من الإبهام تسرى رعشات الكهرباء ويمتد خيط اللهب . دون أن تنظر إليه قالتْ " أحبُ العسل" ودون أن ينظر إليها قال :" أحبُ الكستناء " ،وتلاشى الفراغ الضئيل فيما بينهما ، بينما أخذ الدكتور يتكلم ويتكلم .

شخبطـــــات

تضايـقها اندفـاعات الزمـلاء فتـقف محـتضنه كـشكول المحـاضرات وترقبهم وهم يتـزاحمون بحقائبهم ونظاراتهم وأذرعهـم ويتصارعون على الصـفوف الأولى . تدخل بعـدما يخف الـزحام . تشق طريقـها بتـؤدة إلى أعلى المُـدَّرج ، وتجلس فى آخر صف . يدخل الأستاذ فيسقط الـصمت على الجمـيع ، وما يلبث أن يذوب ، ويتـبدد . تُملى عـينيهـا من ظهورهم وأقـفيـتـهم وتـشور الرؤوس المـتناثرة فـوق أكـتافـهم. ترسـم مـا تراه فى الكشكول خطوطاً عـرجاء ملفوفـة ومتشـابكه. ترى الالتصـاق الخفى بين الأكواع ومنـابت الأثداء وتلصص الأكف على الظهور والأرداف، فـتكتب أسمـاء الفاعلين والفاعـلات وتحيطها بتعـرجات وشخـبطات ما تلبث أن تتحول إلى حيوانات شوهاء فيكون لكل حيوان إسما .

تُدركُ أنهـا تختـلف عنهم ، فـهم يأتون بمـا لا تقـدر عليـه . تتـمنى لو تستطيع الذوبان فى عوالمهم ، تصخب وتهرج وتتلقى لمسة هنا أو هناك ، لكنها أبداً لاتستطيع . ينتهى الأستاذ ويخرج فيتدافعون بحقائهم ونظاراتهم وأذرعـهم، بينمـا تنتظر حتـى يخف الزحام ، فـتـحصى الشـخـبطات التى رسمتها وتغلق الكشكول وتهبط المُدَّرج بتؤدة. وتتجه إلى الخارج .

ستـــــــرة

يستغربن وجودها بينهن بُحليها الغالية وعطورها الباريسية وثنيات الاشمئزاز التى لا تغادر أنفها أوزاويتى شفتيها . هى أيضاً تستغرب وجودها بينهن . هاتيك الفتيات المتبجحات اللائى يسوين رؤوسهن برأسها . إذا ما حادثنها ترد ببرود من لا يرغب فى المزيد ، أو تُصعِّر لهن خدها ، أو تشيح بوجهها عن ثرثراتهن وروائح أسنانهن العطنة . وهن اختزلن لغة الحديث معها ، وحولنها إلى اشارات بكماء وهزات رؤوس ساخرة . مجرد إشارات أو هزات .

يذكرن يوم علقت جوبتها فى مسمار بالمدرَّج فشقها نصفين وعرى مؤخرتها لتقف كدجاجة منتوفة . تنهشها عيون الجوعى من الطلاب. بأريحيتهن أسرعن فدثرنها بأجسادهن وهتفن بالطلاب أن يبتعدوا ، وظللن معها حتى سترنها . هى أيضاً تذكر ما كان منهن عندما جاءتهن فى اليوم التالى ببعض فساتينها ثمناً لهذا الصنيع . وتذكر نظرات أعينهن وهن يلقين بها فى وجهها الواحدة منهن تلو الأخرى .

لا شئ يربطها الآن بهن سوى إشارات التجافى. " جئتُ إلى الكلية الخطأ ، فى الوقت الخطأ " . هذا ما قررته لنفسها. وهاهن هاتيك المتوحشات يُحطن بها . ينبشنها بنظراتهن ، يدعين التعالى ، ويفترسنها فى خلواتهن . تعرف هذا الصنف من الناس جيداً . لديها عينات مشابهة .

الشغالون والطباخون والجناينية وموظفو أبيها .

اليوم هو آخر يوم يمكن أن يلتقين بها أو تلتقى بهن . يرتدين الأرواب والقبعات وهى بينهن ، بدر فى ليلة التمام . تشعر بنفسها شديدة الفتنة ، وترى الانبهار بجمالها فى عيون الأساتذة وأولياء الأمور. لحظات وينصرف الكل ، ولن تعود إلى هذه الكلية أبداً . ستصافح الدكاترة ويسلمها العميد شهادة التخرج. بعدها ستلقى بالشهادة أمام أبيها وتطلب منه أن يفى بوعده لتكمل تعليمها فى السربون أو هارفارد أو بنسلفانيا . هاهى الأيادى تمتد عبر المنصة لمصافحتها. وهاهى ذى الشهادة ملفوفة ومحاطة بشريط الستان ، وأصابع العميد تبدو ثابتة عليها . تقف فى المنتصف تماماً. خطوات وتنتهى . العيون ،كل العيون ، تتطلع نحوها ، تَمُدُّ يدها .. يا ااااه .. الروب والفستان يمتطان ويتمزقان لتقف كدجاجة منتوفة وسط الجميع . بسرعة سحين الصنَّارة وافتعلن مظاهر الجد ثم الفزع ، وقمن متباطئات متشفيات لسترها بعدما نهشتها عيون الطلاب وأولياء الأمور والأساتذة والعميد والسعاة الذين تركوا الأبواب وتقدموا نحوها .

فراغات باتساع الشوارع والأرصفة

١- عبـــــور
٢- تجـــاوز
٣- فى الممـــر
٤- عبر بنايتين
٥- للشقراء أغنى
٦- حســـاب
٧- عريـــس
٨- تســـاؤل
٩- معـــــاً
١٠- بعض من لدونه

عبـــــــور

وكان أن جلستُ فجلستْ قبالتى تماما . لا يفصلنا إلا نهر الشارع . جاءنى النادل بما طلبتُ ، وجاءها النادل بما طلبتْ . أشرتُ لها فبادلتنى الإشارة بمثلها. طلبتُ بإصبع أن تترك جلستها وتأتينى ، وأشارتْ أن أعبر نهر الشارع وآتيها. فكرتُ فى أنها تريد - ومنذ البداية - أن تكسر شوكتى ، فألححتُ أن تنهض وتعبر أمتار الشارع القليلة ، ولكنها أصرَّتْ على البقاء فى مكانها وطلبتْ من النادل مشروباً آخر . طلبتُ مثلها وأشرتُ بأنها ستتبهر بما أعددته لها إن نهضتْ، فأكدت بأنها سترحب بى إن قمت إليها ، ولم نلتفت إلى تكاثف السيارات المارقة بيننا إلا حينما اضطررنا لأن نميل بوجهينا ونشرئب بعنقينا ونرفع أذرعنا حتى يفهم كل منا اشارة الآخر . عندئذ نهضنا نحن الاثنين، وفى وقت واحد حاولنا عبور نهر الشارع ، لكنا لم نستطع .

تجـــــــاوز

ابتسم لها بشئ من الارتباك فأطرقت خجلاً، وتجاوز كل منهما الآخر. لما ابتعـدا قليلاً التفتا مـعاً . التقتْ عيونهـما ثم تابعاً المسـير . فرح عظيم داهم قلبها . بغير ما إرادة توقفتْ . استدارتْ فرأته هناك .. قرب المنعطف . هو أيضا توقف ، ومـثلها اسـتدار . حمـامات رفرفت فى الفـراغ الفاصل بينهمـا . ودتْ لو هرولتْ إليه ، لكنها تراجـعت . شَدَّتْ قوامهـا وعاودتْ المسير ، إلا أن خطوها اختلف وأنفاسها تلاحقتْ .

فى أول زقاق مالتْ . كـيف جَرُؤَت ؟ .. كيف طاوعتهـا قدماها ؟ ... من الزقاق انـعطفتْ إلى أول حارة، ومنهـا إلى الممـشى المفضى لـلشـارع الذى التقيا فـيه . شَدَّتْ قوامها وسارت باتجاهه . هو أيضـا سار باتجاهها. تواجهها. ابتسم لها بشئ من الاندهاش فـأطرقتْ خجلاً وتجاوز كل منهما الآخر .

فى الممـــــــــر

الفتاة بالتـايير الوردى والقرط الوحشى بزغتْ من نهـاية الممر . تأودتْ ومرقت فيما يشبـه الحلم .لم ينالنى منها سوى عطرها الغامض. خليط من لافندر وياسمين . ربمـا . ربما هو عطر جسدها المتوقـد . ربما . قبس منه هو الذى أترعنى. أترعنى والجالـسين والعابرين . هاهى ذى الدهشة تعـقد لسانى وألسنتهم . جميعنا تسمر مأخـوذاً باتجاهها إلا امرأة عجوز. متحررة من الأسـر أخـذت تحملـق فينا وتضـحك . تشـيـر إلينا وتضـحك . تدور حوالينا وتضـحك ، فيما ظل العطر يـتضوع فى الممـر ويلفنا ، وما من أثر للفتاة بالتايير الوردى . ما من أثر .

عـــــبر بنايتين

يقضى معظم الليل فى التطلع إليها . تتصاَّعَدُ تنهيداته وتهمس من أسفل شاربه . تنزلق من النافذة وتعبر الفراغ الفاصل بين البنايتين . قد تهتز لضوضاء العربات المارقة فى الأسفل حتى ليُظن أنها ستهوى من حالق ، لكنها فى كل مرة تطفو وتتموج وتتسرب فى الفضاء المتبقى وتصل إليها. تلتصق بمنبتى الثديين المكشوفين حارّة لاسعة ، فلا تخفيهما بكفيها ، ولا تتحرك من مكانها ، وتظل فى وقفتها تنظر فى كل اتجاه إلا اتجاهه . يناديها أبوها فتدخل . تُحس بنفثاته تُلهب ظهرها فلا تلتفت وتمضى إلى أبيها ضاحكة .

للشقـــــراء اغـــــنى

غنيتُ للشـقراء المتكئة عـلى سور الشـرفة . رفـعتُ رأسى باتجاههـا وغنيتُ . زفـراتُ حَـرَّى ضمـختُ بهـا غنائى . وضـعتُ يدى على قلبى ، وقلَّدتُ المطرب الشـهير ، لكنهـا لم تسـمعنى . هذا ما فـهمته من عينيـها الساهمتين باتجاه البعيد .أذبتُ نفسى شعاعاً وعرضتها تحت عينيها بالتمام فنظرتْ إلىّ. ليس أمـامهـا إلا أن تنظر إلىّ . شئ مـا تحـرك فى عينـيهـا . ابتـهجتُ فضـممتُ كـفىّ ومددتُ ذراعى مـثلما يـفعل المـدلهون حـبا . أعطتنى وجهها وحّـركت زاويتى شفتيها . هى تبتـسم أو تشرع فى الابتسام أمعنتُ النظر لاتأكد من أنه ليس وهما . بالفعل هى تبتـسم. خفيفاً اندفعتُ إلى عـامود الـنور ، خاصـرته بذراع وفـردتُ الأخـرى مثلمـا فـعل النجم السينمائى . لو شاءتْ أن أفعل ما هو أكثر لفعلت . لو أرادتْ أن أطير إليها لطرت، فى عينيها دعوة لأن أعود إلى حيث كنتُ. أسفل منها بالتمام . ربما قالتْ لى شيئاً . ربما أنزلت لى حبلاً . فى وثبة كنتُ حيث فهمتُ . حركتْ يدها . لعلها ستكلمنى بالإشارة . ربما لوحتْ لى . ربمـا كلمتنى بأصابعها . لعل أحداً بالداخـل تخشى أن يكشفـها . لا يهم ، أنا خـبير بلغـة الإشارة ركزتُ اهتمامى فى الكف التى رفعتهـا . علّقتُ عينى بأصابعها إذ تفردها ، لكنهـا رمتْ قشوراً من اللـب فوق رأسى ثم أشاحتْ دون أن تـضحك ... حتى !!

حســـــاب

هاهن يمشين متبخترات ، متخلعات ، يملأن الشوارع والحارات . نضج بحركتهن الردهات والممرات ، يثرثرن فى المكاتب ووسط الآلات. يتدافعن بحقائبهن ويطلعن بأجسادهن الصغيرة والممتلئة ، بأثدائهن المشدودة والمترجرجة. يؤرجحن جماجمهن ، ويسوين شعورهن وخمرهن. يقفن ويساومن ويحلفن ثم يمضين غاضبات أو راضيات وربما مستهترات. قد تنفرج شفاههن عن ابتسامة أو تُزم على تكشيرة ، لكنهن دائماً شاحبات على الرغم من الأصابع والحلى الأصلية والمزيفة ، فهناك فى البيت رجل أو ولد، يجب أن تحسب له كل واحدة منهن ألف حساب .

عـزيـــــس

وَدَّتْ لو حملـها النسيم وحلـق بهما فى الفـضاء . لو أجلسـهمـا فوق نجمـتين وأرجحـهما داخـل الهلال المعلق فـوق المدينة . فكم هى مليـئة بالخـير والحب هذه الحياة. مـا من شئ إلا يلمع ... يبـرق .. يضئ . وفى الداخل ذلك الوجيب اللذيذ ، وتلك الفرحة التى تشـعر بها قوية ..طاغية . قـال لها: أحـبك . وقال لهـا :سـأتيكم وأهلى ونطلب يدك . تركتْ كـفهـا تستـكين فى كفه واسـتراحت له . بعـدها ، فردا أذرعـهمـا وطفقا يـجريان ويرقصـان. يهتفـان للحياة وللحب . وحـينما انبثق أمـامهمـا ذلك الشـرطى المستريب ، فوجئتْ به يتركها ويجـرى مختفياً فى أول انعطافة ، بين الأبنية السـوداء المـتكاثفة هناك ..حيث لا شئ غير الـظلمة ، بينما سَـمَّرتهـا عينا الشرطى فى أسفلتْ الطريق.

تســـــاؤل

البنت فى الشارع الآن . لا يوجد رصيف ، لكنهـا على حجر أمام باب العشـة تجلس ، عيناها مثبتتان على الداخلين والـخارجين . ذقنها المـدببة مستـريحة على كفيـها وكوعاها مـغروسان فى فخديهـا . تقول هذا الرجل جاء من قـبل . هذا الرجل لم يأت من قـبل . هذا الخارج أعطانى جنيـها ، وهذا الولد شتمنى . ومن الداخل تأتيها الأصوات التى لا تفهمها، فتتـساءل عما يحـدث ولا تراه ، ولماذا تنبه عليهـا أمها بعدم الدخول عـليها فى هذا الوقت بالذات .

معـــــاً

أربع فتيات ينمن فوق الرصيف . فوقهن خيش وتحتهن خيش . إحداهن فركتْ عينيها . قرطتها مفكوكة ولمعة النوم فوق جبينها ، الكوز فيه بعض الماء والورقة التى أكلن ما كان فيها مزنوقة بين إبهامها وكعب إحداهن .

ظلُ الرجل بالبالطو واللفافة الكبيرة ينفرش فوقهن . حملقت فيه الفتاة وجلستْ فأفقن . ثلاثتهن أفقن . مثلها حملقن فى الرجل . أشار باتجاه واحدة :

– أنت .

هَمَّتْ بالنهوض فأمسكن بها . فى نَفسٍ واحد نطقن :

– معاً .

وَزَّع بصره بينهن وبين اللفافة . فى اللفافة زجاجات وأرغفة وأجبان. هز رأسه أن لا بأس فنهضن . كَوْمَنَ الخيش ودخلن تحت إبطية . لكل إبط اثنتان ، وإذ يمشى بهن حاولن ، كل واحدة على حدة ، أن تُمسك باللفافة . تُمسكها أو حتى تمسها . لكنه فى كل مرة يقصيها عنهن ويمشى فلا يملكن إلا أن يمسحن أنوفهن ويستحلبن لعابهن ويمشين معه .

وفى منطقة الضوء الباهر،هناك.. تحت الفانوس ..فرد العسكرى الورقة أم خمسة التى منحها إياه ذو البالطو وندتْ عنه"ياه" طويلة ممطوطة، وارتكن إلى العامود متخيلاً الأشياء المبهرة التى سيفاجئ بها أولاده فى الصباح .

بعض من لدونه

وطء السنين يُثقل خطوى واهتياج الماء فى النوافير ينعش روحى . ماذا تبقى لى بعد كل هذا العمر غير وجع المفاصل وتقطع أنفاسى ؟ .. ليتنى ما اختبأت من طائر الحب . ليت براثنه تخطفتنى وأخذتنى إلى حيث لا أدرى ولا أطيق . تعال أيهذا الطائر وادفع برذاذ هاتيك النافورة المحاصرة بأعمدة الصوديوم ومربعات الجرانيت الملون إلى وجهى . الميدان فارغ إلا من تعاستى والتباسى ومواء القطة التى لا أراها ، فاغمرنى يا طائر الخرافة بهذا الرذاذ ، وضمخنى بنداوة العشق فالدم فى عروقى لم يتخثر ، والقلب به بعض من لدونه ما يزال .

يالظى الحلم الذى يتوهج وقتما يشاء ويخبو وقتما لا أريد ، أحذرك البروق التى تصطرع فى سمائى . صمتُ الليل وصخبُ الماء يشتجران وسط الميدان ، والصوديوم ينز صديده فوق ألوان الجرانيت ، كعبای يهتزان فوق الأسلفت ، والقطة الخفية لا تبين فتعال أيهذا الطائر . كم أتشهاك ياذا البراثن ، لكنى كعهدى - ما زلتُ أخشاك . لا تبالى باضطرابى وتعال . رَوِّح عن قلبى . ارفع عنه أثقاله . لكنى ككل مرة سأختبئ منك . لا أقدر عليك فأنت صنو المهالك ورفيق الردى .

هاأنذا أزحف بقدمى إلى النافورة واستعد. اهبط إلى البركة واستعد. ارفع رأسى واستعد. لكنك لا تأتى . لا تفرد جناحيك وترفرف . لا تدوى بزعقتك الراجفة . وهاهم ينبثقون لا أعرف من أين ؟ .. القيح يهمى فوق

رؤوسهم ويتقدمون. يتحلقون النافورة ويتزاحمون . يحدقون فى ويطرقعون أكفهم عجباً واستهزاء. أحدهم يتخطى حاجز البركة ويمد يده . برفعنى فينالنى صديد الصوديوم وقيح الجرانيت . يطيب خاطرى ويمشى بى فوق الأسفلت فيعاودنى وجع المفاصل . شعرى مهدل تحت الطرحة والماء يسيل من أطرافى. أنظر اليه وأقلب بصرى الكليل فى بهمة السماء. أنادى طائرى أن يأتى ، لكنه لا يأتى . والرجل ما يزال يسندنى وخطوه مثل خطوى بطئ .. بطئ .. بطئ .

نبـــض النـــار فى زبـــد البحـــر

١ - القروية التى تغنى أمام البحر
٢ - امتـــــــلاء
٣ - العـــــابرون
٤ - وجه من ضوء وغيمة من بنفسج
٥ - الجورب كحلى والخطى واثقة
٦ - غواية الأزرق الفسيح
٧ - فنـــــــار
٨ - زنبقـــــــة

القـروية التى تغنـى أمـام البحـر

يا لروعة ظهرها المشدود ، وضفيرتيها المعقودتين من الخلف . انظر إليها إذ تقف أمام البحر وتغنى ، تلك القروية المستوحدة بنفسها . كفّاها تحت إبطيها ، والزهور فوق فستانها تهتز . تستقبل الأفق ولا تكاد تُحس بالماء إذ يلامس قدميها . بُرعم تفتق عن إمرأة من نغم ، ينسرب فيملأ أجواز الفضاء، ويدخلنا فيتوزع بين الشرايين والأوردة نوراً وضياءً .

قفا حيث أنتما ، أو تعاليا محاذرين ، تعاليا برفق ، فياله من عبير ذلك الذى يتضوع فينفى رائحة البحر ويلفنا . ألا يدهشكما ذلك النخيل الباسق من خلفها ، وبالأمس لم يكن له من أثر ؟ .. وهاتيك النوارس الهاجعة فوق الماء ، ألا تثيركما ؟ .. لكأنها بساط مُرقَّش فُرش على عجل . جميعها يشرئب ويرنو إليها . والماء من تحتها بلاطات من الأخضر والأزرق والرصاصى . من أين جاءت أسراب تلك النوارس ، ولم يكن بين الماء والسماء سوى غراب بحر وحيد ، يحوم أسفل شمس تبرقعت بالغيم ، وارتكنت إلى سحابة حُبلى بالرمادى ؟

اخفضا بصريكما إلى قدميها . أين سراطين البحر ، وعفونة القواقع والمحارات الميتة ؟.. زيوت البواخر والزبد المُعكّر ونفايات الهلكى اختفتْ . الرمل أبيض من حولكما، أما تلحظان ؟ .. نائم ومستريح ، فلا خربشات من جنادب ولا أخاديد من حلازين ، دققا ، لا أثر لأقدامكما. لا

أثر لقدميها. أين تموجات وتعاريج رياح الأمس العصفة ؟ كم هو بهيج ائتلاق النترات المذهبة بالضياء من حولها . لن تحصياها إن أردتما ، فتابعاها إذ تضوى بالنور لتحيطها بتلك الهالة من اللألاء الحانى .

البراح الوسيع مُفعم بالسلسال المنساب من فيها، وضجيج الأسفلت كَفّ وتلاشى ، فأصيخا السمع . هذه أسلاك التليفون انقلبتْ عريشاً من أوراق اللبلاب وأزهار ست الحسن ، فلا تستسلما لرعشة الانتشاء ، والزما جوارى ، فلعل هذه المراكب المقلوبة تأمن لنا ولا تكشفنا إذ نتمتع بكل هذا البهاء .

لو ملتما قليلاً وتوجهتماها من هذه الناحية فسيكون ذلك أفضل . من هنا يمنحكما اللألاء نفسه ويسمح لأعينكما باختراقه ، انظر إلى صفحة خدها ، إلى تلك العذوبة التى تفيض من لحظها ، وإلى ألق ذلك الجانب من جبينها . ياله من وجه يبدو عصياً على الإمساك بملامحه . كم هو مُريح وبريْ وآسر . نعم هو مُريح وبريْ وآسر . لا .. لا تقولا " ربما يبكى براءة ضاعت " . أى إثم تقترفان ؟ .. تحمما بوضاءتها ، واسبحا فى ملكوتها ، واتركا ما تهجسان به من هرطقات. لعلها ما أقدمت على شق أرض بفأس، أو ضرب دابة بسوط . ويلكما ، اخرجا مما حصرتما نفسيكما فيه . ما أظنها يوماً أزهقت روح آفة ، أو قدرت على قصم سنبلة ، فما أعمق اللجة التى أو قعتمانى فيها. لكنى منتشل نفسى منها.أنا منتشل نفسى منها ، فالخفى فيها جلى والجلى فيها خفى .

أرأيتما تلك الحنية الباهرة عند ملتقى ذلك الجانب من شفتيها ؟ .. أى سحر هذا الذى سُكب فيها .. أى أكسير ، وأية قوة جاذبة . لا تقتربا منها .

لا تكلماها. نواريا ولا تُرياها نفسيكما ، فالأفق رحيب ، والسماء مقببة ، وهى فى المنتصف ، أيكة تستجيب لاهتزازات النغم والأثير . وهاهو ذا الصوت الرخيم ترسله فيتصاعد إلى الشمس . يحف بنقابها ، ويهبط إلى الماء . يهز رقاب النوارس ، ويسرى فى خلايانا . يدغدغ مراكز الحس فينا ، فتماسكا وامسكا بى حتى لا نضيع سكراً أو إفاقة ، فما نحن إلا متلصصون ضعاف أنالتهم الصدفة نعمة التمتع بما لم يدر بخلد أى منهم . دعا كل شئ على سجيته واحفظا اللحظة بداخليكما إنها كنزنا الذى حصلنا عليه . امسكانى برفق ولا تخدشا طرفاً من هذا البهاء ، فلن نسامح أنفسنا إن عكرنا عليها صفوها .

لو تركتمانى سأنطلق إليها . تلاطم لواعج الوجد يأخذ بناصيتى إليها . احرصا علىّ وإلا انثلتُ منكما انثيالاً . ستجذبنى لأقعى تحت قدميها . عندى من الطيش ما يكفى لأن أجثو تحت نعليها . لن أنطق إلا بما تهوى . لن أفعل إلا ما ترضى . إن شاءت سأستبيح لنفسي متعة التخبط فى مفازات الالتباس المؤدية إليها ، لن أتركها أبداً . لن أهتك ما تبيحه لى من أسرارها ، تلك القروية التى تغنى ، فخففا قبضا تكما علىّ .

أتريان انبجاس الماء ؟ .. أى شئ يمور فى بطنك أبهذا البحر الوسيع بلا نهاية ، العميق بلا غور ؟ .. كأن بلاطاتك جيلاتين يترجرج . سألتكما بما تمتعتما به منها إلا تركتمانى . أما تريان ؟ .. دع يا هذا قميصى . وأنت لا تخاصرنى. ثمة سعيفات خضراء تنتفض، تشق جيلاتين البحر وتنتفض. طَلَعٌ يظهر، وجذوع تبين ،غنى أيتها القروية غنى . ابذلى نفسك فى الغناء. هاأنذا آتيك وأتوق للتلاشى فيك . استغشيا ثيابكما واتركانى أيها الفتيان.

اعطفا علىّ وخليانى ، فكم أنا مشوق للغناء على أعتاب هذا الكائن المستحيل .

انظرا ..إن النوارس لتعجب فتدير رقابها صوب المعجزة إذ تتخلق ، هاهى ذى الجلوع تعلو والسعيفات تكبر وتنتفش . ياله من نخيل سامق. لو حكينا من سيصدق ؟ .. نخيل فى البر ونخيل فى الماء ، والنوارس فى هجعتها لا تفعل أكثر من أن ترنو ، والصوت الرخيم ما يزال يتمدد ويملأ الفضاء . وهى كما هى ، فى هالة من لألائها تقف .

ويحنا .. دون أن ندرى غيرتْ فى وقفتها . ثمة ساق تقدمت ، وجذعها للأمام مال ، هاهى تنزع كفيها من تحت إبطيها ، وتدفع بذراعيها للخلف . يإلهى .. أى التياث ذلك الذى يغشى منافذى ؟ .. ليسا بذراعين . إنهما جناحان . جناحان مريشان . ها .. إنها تستحيل إلى يمامة . زهورها انقلبت زركشات حمراء وخضراء . بهالتها تخترق مويجات النغم وتنطلق فى أجواز الفضاء ابعدا عنى لا تمسكانى . الشمس نزعت نقابها وتركتْ متكأها. السحابة تقلقلت بحملها . ما فائدتى وأنا أحمحم بين أذرعكما بظمأى ؟ ... انظرا ، النوارس جفلتْ لتوها وبدأت فى الصياح .. وهاهى بجناحها تميد بين سعف البر وسعف البحر وتطير.

امتـــــلاء

انفجر الـزبد عن ضباب اندفق على قشـور البكلويز وأم الخلول وأظافر الجنية . توقفتُ عن متابعة زحف الخنافس والحلازين فرأيته أبيض ثخينا . يندلق باتجاه الرمل الناشف ، ويبتلع المراكب والفلين ، وخن أم عبده الذى اتخذته مستقراً صباحياً لها، تنادى منه ابنها الذى خرج إلى البحر ولم يعد . انتـفـضتُ فـانتـعش وفـار وانهـمـر علـى أخـرام الـسـراطين ، وطال أبراج الغطاسين وخـفـر السـواحل . خفت فتكوم واندفع وحـشيـاً صاخبـاً وامتط وبزغتْ منه أذرع امتدتْ فى كل اتجاه تلف وتخمش كل ما تطاله.

انتعلتُ شبشبى ولملمتُ فستانى وجريتُ فجرى خلفى . هائجاً متورماً رأيته خلـفى . يلاحقنى. لكأنه يقـصدنى أنا . لكأنه مـا انطلق إلا من أجلى أنا. لذتُ بأراجيح الـصغار ونخيلات المحبين فاكـتسحـها . بالشـماسى والكبـائن وأكشاك المـصطافين فـأخفـاها . ببلورة الفنار فـأغطسهـا. حتى مـساحـات النجـيل التى طالمـا جلستُ وغنيت وغـفـوتُ فوقـهـا دهسهـا وغطاها.

وثبتُ إلى الكورنيش ومنيـتُ نفسى بأمـان البيـوت الناعسـة ، لكن يده لحقتنى . التفَّتْ حول زندى وانزلقت حتى كوعى ثم أمسكتْ بذراعى كلها . بيضاء ثخينة ، ارتعدت وشعرتُ بها إذ تتثلج . سمعتُ له زحيراً ودمدمة ، فيـما أخذت الدماء تفـور فى عروقى وتهدر. درتُ حـول نفسى وتملصتُ

وانتزعت ذراعى قبل أن تنخلع . قبض على الأخرى ، ومنها انسرب فاحتوى صدرى وهصر ثدى وجذبنى إليه . عضضته وجريتُ فأمسكنى من خصرى، رقصتُ بطنى وانزلقت من قبضته وصرخت مستنجدة بظل خايلنى، فلطم فمى وشد شعرى وجرنى إليه ، توائبتُ متحملة الألم وفقدان شبشبى ، وجريتُ فأمسكنى من ساقى وسحبنى . كبوتُ ونهضتُ وحجلتُ ومددتُ كفىّ باتجاه الظل البعيد ، لكنه شدنى وانقذف فوقى وضمنى الضمة التى أرجفتنى .

كثيفٌ ، ثخينٌ ، وأبيض. لدهشتى انقلبتْ دمدمته وجيباً، وهدأ زحيره ، فزايلنى رعبى . مس خدى وجبهتى ، وشعرت بنفثاته فوق شفتى ، وبفورانه إذ يتخلل شعرى ، فغزانى قدرٌ هائلٌ من الاطمئنان وتركته يفعل ما يشاء ، فقبَّلنى وقلَّبنى ودفنتى فى صدره واحتوانى . حملنى وهرول بى ، ثم أوقفنى ودار بى يراقصنى فوق ماء يترجرج. لكأنه ثبج الموج ، لكأنه العميق الأخضر ، انتشيتُ وتفتحتُ له، وانزلقت من فستانى، وقلت : "هئتُ لك" ، فلفنى وراح ينسرب إلى من ثقوبى ومن مسامى . يجوس فى داخلى ويجول . شممتُ رائحتة إذ تختلط بدمى ، وسمعتُ خرير الماء من تحتى فار تميتُ فوقه مفتوحة العينين ، مأخوذة بمشاعر الخدر والإمتلاء .

اترك المـاء واخرج .. تعـال .. إجر .. لن تـصادفـها أبداً فى مـثل هذه الحالة . هاهى تجلس كالعادة تحت الشمسية عجوزاً كما هى ، مغضنة كما هى ، شـوهاء وعرجـاء وبكماء .. لكنهـا ترسم هذه المرة .. ترسـم صوراً جميلة للبـحر وللنوارس ولأجساد الفتيـة والفتيات. للفتيـة سيقان وأذرع ، وللفتيات وجوه تنطق بالبهاء، والنوارس مرحة ، والبحر أزرق ، ناعم .

انتبه..إنها تغادر مقعدها وتحجل باتجاه العابرين.وجهها يطفح بالبشر، وعيناها ينبوعا فـرح وسرور. انظر . إنها تبتسم لهم وتشيـر باتجاه لوحاتها. تتـقافـز أمـامهم وتكاد تمـسك بأذرعـهم .. لكنهم كـالعادة يجـفلون منهـا ويبتعدون .

وجـه من ضـوء وغيمـة من بنفسـج

شعرها الفاحم يلف وجهها . عبثاً أحاول تبين ملامح هذا الوجه . عبثاً أحاول رؤية عينيهـا .. خديها ... شفتيها .. أى شئ قد يزيـدنى معرفة بها ، فنورها يُغشـى .. آه أيها النور .. آه أيتهـا الوضاءة .. كيف يمـكن لمثلى أن يسبر غورك ويتماهى فيك ؟

أرفعُ كـفّى فوق عـينى لأحد من بصـرى فيتـغشـانى بهاؤها . لكأنهـا تخلقتْ من نور . لكـأنها الجـلال مـجسـداً . من ورائهـا تتقـاطع الأخـيلة وتتناحر . تفور وتهمد . تنبطح وتتقافز . وضوؤها فوق الكل طاغ .

تتأبى وتأخذ صدارة المشهد . لولا الشعر الفاحم والرداء المنساب لما تحددتْ . لكنها هى .. نعم هى .. هى التى أهفو إليها وأتوق للتوحد بها .. معها .. وفيها .

لو خفّ الضوء للحظة . لو شفّ رداؤها قليلاً . لو بانت ملامحها .. لو زالت الصراعات من خلفها .

لكأنى أسمع صوتا هو زمجرة أو زئـير .. عواء أو نعيق بل هو نباح .. نعم نبـاح .. وتلك غيـمة .. نعم غـيمة .. غـيمـة لها لون البنفـسج وشكل البرتـقال . فى الأسفل مـنها رأس كلب . رأس مرفـوعة للأعلى ، وعـينان جاحظتان .

تتواثب الأخيلة باتجاه برتقالة الوهج . تهشها . تبعدها. لا.. بل تحاول .. تتقافز وتحاول .. فتميد الغيمة . تروغ وتعلو وتظل فى السمت . فى السمت تقريباً . تفيض بالبهاء والبنفسج . وفى الأمام هى هى كما هى . تثبت الضوء وتبهر عينى .

لا أملك غير النظر إليها . تشمخ بأنف لا أراه لكنى أحس به . من هزة رأسها وميلة شعرها تبين حركة الوجه النورانى . حركة للأعلى .. فتميع برتقالة البنفسج .. تتماوج .. تمتط وتنبسط .. تتبدل وتتحول لكأنها الآن سحابة مثقلة بالبنفسج .

هاهى الأخيلة تتطلع إليها . قاماتها تطول .. " هش .. هش " . تكاد تصم أذنى " . مسلكها يشى بالخوف . يصرخ به . والكلب جالس على قائميه الخلفيين ، يمد عنقه وينبح . عيناه على جحوظهما ما تزالا. وهى هى بنورها الغاشى وقوامها الفتان تتصدر المشهد .

يميل الوجه البهى صوب البنفسج فيسيل ويهمى حبات ثقيلة تصبغ زحام الأخيلة وترديها فتسقط ولا تنهض . تذوب وتترقرق ماء أزرق تحت قدميها. يمتد ويتماهى فى ماء البحر ، فأشمر عن ساقى وأخوض فيه سعيداً لأنه يجمعنى وإياها ،فما زلتُ لا أقدر على لمسها أو الاقتراب منها ، والكلب الذي اختفى ما يزال ينبح .

الجورب كحلى والخطى واثقة

الجورب شفاف . كحلى مطرز . يصعد لأعلى ، إلى حيث يلتف دانتيلا الجوبة بالفخدين ، فوق الركبتين بشبر أو يزيد . الجوبة زرقاء ، بسيطة . تضيق عند الردفين وتعلو حتى الخصر المكشوف . مكشوف فيما يشبه الحزام .. تتوسطه السرة وتعلوه البلوزة القصيرة المشمورة عند النهدين المشدودين بسوتيان يشد ولا يبين له أثر .

تمشى الفتاة بزرقتها وسط الراقدين والجالسين والماشين تميس بين المقاعد والشماسى وأحبال الخيام . بشقة تمشى. تخز بكعبيها الرمال وتدهس القواقع. إلى أين تمضى ؟ غير معروف بالضبط ، لكنها واثقة الخطو تمشى . متبخترة تتأود وتميد . رأسها عال وعيناها إلى اللاشى تنظران .

تعلم أن فريقاً متزايداً من الفتيان يمشى وراءها . تقاطرهم يمتد طويلاً ولهاثهم تسمعه . كلما خطتْ خطوة وثب نائم وانقذف جالس واستبار ماش.لغط الآن يتلاطم خلفها ، وأصوات تأوهات تأتيها . يتدافعون الآن بالمناكب. هى تعلم وتمشى بحذاء البحر. أطراف الموج تلحس آثارها، والعراة وسط الماء يتوقفون . يتركون نسائهم ويتقدمون وهى لاهية عنهم باللاشئ الممتدفى الفراغ بين السما وضجيج الرمل والماء .

لا يمكن أن تمشى إلى مالانهاية . اللسان الصخرى يبين. انتهى الشاطئ

فلنستدر عائدة . لكن عيون الفتيان فأجأتها فارتبكت . سقطت عيناها إلى الرمل . كأن ما من بنت سواها . كأن الشاطئ قد خلا إلا منها . لماذا ينظرون هكذا ؟.. اضطربت خطواتهافجرت. خَزَّتْ المشمعات المفروشة ووطأت أجساد المسترخين من العجائز . اسقطت مقاعد وشماسى وظلتْ تجرى ، ومامن أحد كان يجرى وراءها . ما من أحد على الاطلاق يرتاد الشاطئ .

أقبـلا علىّ .أسنانهما تلمع إذ يضحكان. من أعينهما تُطل الرغبة فى العبث . عرفـتهـمـا .. قلتُ :" أنت حمـدى وأنت طارق " . تبـادلا النظر وقهقها .سألتُ : " كيف عرفـتما أننى هنا؟ " لم يردا. فقط التفت كل منهما إلى الآخرثم مـدَّ ذراعاً .. قلت: " مـاذا تنويان؟" ، فجذبانى إلي الماء كل واحد من جهة . " فستانى سيبتل" . " ليبتل" .

الزبد ليس نظيفاً. ملغوم بالزيت والرمل وقطع الأخشاب والبلاستيك، وبقايا الأطعمة . هشيم القواقع يخز قدمى . رفعانى وتجاوزا بى شريط النفايات والعكارة.. المـاء الآن أزرق. تنبهتُ إلى انحدارات القاع من تحتى. هما أيضا تنبها. تركانى فأخذت أدف بذراعى وساقىّ ، وهما أيضا. أحسستُ بفستانى ينتفخ .قلتُ:" نفسى قصيرفأرجعانى " . أشار حمدى باتجاه الأفق : " الجزيرة " . وقال طارق :" كونى معنا " وغاصا، فيما ظللت طافية .

انقلبت على ظهرى وتأملت فُستانى المقبب والسماء الزرقاء والنوارس التى تهيم فى الفراغ زاعقة . تذكرت الذين تركتهم على الشاطئ هناك وهممتُ بالرجوع ،إلا أنهما انبثقا من الماء وأدارانى صوب الجزيرة وسحبانى إليها. قلتُ : " لا .. أرجعانى " .قال حمدى :" يمكنك أن تقفى الآن ؟ . وقفتُ فإذا بالماء لا يكاد يصل إلى ركبتّى. قال طارق : " هذه هى الجزيرة .. أول جزيرة ". نظرت أسفل منى فإذا بالماء كصفحة الزجاج .

رائق شفّاف ، ورأيت الأسماك الصغيرة تسبح بين سيقاننا والقواقع اللابدة بالرمل تُخرج ألسنتها وتلتقط أشياء لا أرها . هتفت: " انظر يا حمدى .. انظر يا طارق " . قالا: " نعم" .. " نعم" انثنيتُ واغترفتُ بعض الماء فخرجتْ لى سمكة صغيرة شفافة أكاد أرى فقاراتها وأمعاءها. قلتُ:" انظر".لكنها انسربت مع الماء المتساقط وزاغتْ فى الأزرق الرقراق .

قال حمدى :" تعالى إلى الجزيرة الثانية ". قلتُ: " لا ..لا أستطيع " قال طارق:" نحن نستطيع. " قلتُ : " أبقيانى أو أرجعانى ". قال حمدى :" هناك الماء أقل". وقال طارق : "عندما يعمق الماء ما عليك إلا الطفو ونحن نسحبك " . نظرت للنوراس التى تظللنا وإلى الشاطئ الذى اختفت مظلاته وخيامه فخفتُ. قلتُ :" أهلى يبحثون عنى الآن " . لكنهما سحبانى إلى الماء العميق وجدفا .

قالا : " ما رأيك ؟". وقفتُ ، فإذا بالماء يغطى بالكاد منتصف ساقى ، ورأيت المغموس فيه منهما يتعرج . كذلك المغموس من ساقىّ كل من حمدى وطارق . وقلتُ : " الماء هنا أصفى ما يكون " . قالا :

" نعم " .. " نعم " . قلت : "لو لمياه الشط مثل هذا الصفاء .. " .

قال حمدى :"فى الجزيرة الثالثة الماء أصفى ". وقال طارق:"فى الجزيرة الثالثة الماء أقل"..قلتُ :" لكن المسافة إلى هناك لا شك عميقة". قال حمدى " أعمق ما تكون " . وأكمل طارق : " وأطول ما تكون " . قلتُ :" سأتمدد ، وإن أردتما سحبى إلى هناك فاسحبانى " . وتقدمتهما إلى حافة الماء العميق قبل أن أُسْلِم نفسى لهما .

ما غمستُ فيه قدمَّى ، فى الجزيرة الثالثة ، لم يكن ماء ، بل ورقة سوليفان شفافة لالون لها . ورقة اخترقتها قدماى بالكاد ثم التأمت بحنو حول كاحلى . الرمل أبيض تحت قدمى ، ناعم بلا ثنيات ، لا يتحرك . من فورى رفعت رأسى إليهما وقلتُ :" خذانى إلى الجزيرة الرابعة " .

تسمرا . لحظة ثم تبادلا النظر . بعدها واجهانى. قال حمدى :" لا توجد جزيرة رابعة " . وقال طارق :" من هنا لا يوجد سوى الأقراش ووحش البحر " . ضربتُ ثوبى واتجهت صوب الأفق . صرخ حمدى : " ارجعى " . وصاح طارق :" أفيقى". لكنى نظرتُ إلى الأزرق الفسيح. ووقفتُ عند حافة الماء العميق وقلتُ لهما:" اتبعانى ".

فـــــنار

شق ضوء الفنار عتمة السماء والماء فبانتْ من بطن الليل أشياءٌ ثم عادتْ فالتأمتْ . قالتْ: " نعم أحبيته ". زعقتْ نوارس ورفرفتْ أجنحة غيرمرئية ." لازمني كظلي ، فأحبيته " . تهشمتْ أضواء المصابيح وسالتْ فوق الماء خليطاً مهوش الألوان . " لكنه سافر". شقّتْ سمكة مزيج الألوان فامتد وترجرج وأحاط بالقوارب الراسية ." قال يجب أن نسافر ، وقلتُ يجب أن نبقى ، فتركني وركب الماء " .

حامَ عصفور ونقر الضوء المترجرج ، فيما خلعتْ خاتماً ووضعته على الترابيزة : " هذا خاتمة "، وفتحت حقيبتها : " وهذه خطاباته " ، ودست يدها : " وهذا دفتر تذكاراتي " . طوحت بها جميعاً فتناثر الماء والضوء وطار العصفور .

نهضتْ وواجهتْ جليسها : " قل له .. قل له ما رأيت " . ومضتْ ، فيما عاد ضوء الفنار يشق عتمة السماء والماء ، وبانت من بطن الليل أشياء ثم عادتْ فالتأمت.

زنبقـــــــة

هسيس البحر هناك فى البعيد . وفى البعيد أيضاً مدينه الأسفلت . استلقتْ تحت شجرة الكافور غير مبالية بنداوة النجيل أو بالقشعريرة التى هزت جسدها وأرعشته .توسدت ساعديها وتمددت فى استرخاء . مستسلمة لما ترجوه أن يأتى، راحت تتابع حزم الضوء المنسكبة من بين طيات السحب .أغلقتْ عينيها وتممت : " هل يمكن أن يجئ؟"

فتحتهما فإذا بالوجه الذى يفيض بهاء يكاد يلاصق وجهها . اتكأت على مرفقيها وتأملته . فى خلاياها انتشاء وبأطرافها خدر . دس فى مفرق شعرها زنبقته البيضاء. زنبقة هى ومضة من ألق . فى المكان الذى تعودته تماماً دسها ، فتغشتها السكينة وغمرها الضوء . تملتْ من صفاء عينيه النجلاوين إذ تهيمان بوجهها وتفتحت له . لكنه نهض واعتلى حزمة ضوء وتحرك صاعداً إلى أن أخفته السحب. ومن بعيد جاءتها جلبة المدينة عالية مدوية ، فيما انطفأ ألق الزنبقة ، فتمنت لو اختصر البحر المسافة وجاءها الآن .. الآن .. فى التو واللحظة .

عطـــور تتاُوه تحت ســـدادات القوارير

١- الرجل فى غرفة الانتظار
٢- غيمة ملونة
٣- فـــم ملوى
٤- شرفتـــان
٥- قرطـــم
٦- تعاســـة
٧- ماكيـــاج
٨- كآبـــــة
٩- غضـوب

رأت تعاستها مجسدة فى بشاعة وجهها إذ ينقبض ويتمدد ويتلوى. كل ما بها طبعته المرآة أمامها . المغارات والكهوف والسراديب التى تصفر فيها الريح ، أنفها ذو الندبة وزرقة العروق النافرة عند الصدغين . المسام التى انتزعتْ منها الشعيرات لتوها ، وانثناءة زاويتى الشفتين النحيلتين كخيطين نفشهما البلل .

ككل مرة فرشت أمها الفستان فوق السرير . كعادتها سوته ولم تنس التنهيدة . قالت : " بسرعة " ، ثم خرجتْ وتركتها لوحدتها ، فبكتْ .

بين قوارير العطر وعلب البودرة اختلط نثار الدموع بالمخاط الذى همى فانتبهت . خلعت جلبابها ولم تقدر على مواجهة تعرجات عظام صدرها . مرتعشة وضعت السوتيان الذى يوحى بامتلاء لا وجود له . بعدها عبأت نفسها فى الفستان أو دلقته فوق جسمها ،لا يهم ما فعلته المهم أنها تدارت فيه .

بالمنديل مسحتْ ما سَحَّ على خديها . تمخطتْ فيه ودعكتْ به أرنبة أنفها ثم رمته فوق بلور التسريحة . متكاسلة فتحت علبة بودرة وأمسكت بقلم روج . مررتْ الماسكرا فوق رموشها ، وبالبدارة تمهلتْ فوق محجرى عينيها . علقت لآلئها المزيفة فى أذنيها وثبتتْ البروش ذا الريشة فوق صدرها ، ولم تنس الإيشارب القصير . التقطته وأخفتْ به الجزء كثير

الحنيات فى عنقها . تذكرت " كان يجب أن أنزع الدبابيس وأفك دوائر الرولوه قبل الإيشارب ، لكن لا بأس " ، فكتْ شعرها وهيجته ثم استعرضتْ المخلوقة المطبوعة أمامها من قمتها إلى أسفلها. " لا بأس من بعض الرميل هنا .. والآى شادو لازم هنا " . هى الآن أكثر حماسا. لمعة الأنف أطفأتها ، ونقط العرق التى انبثقت فوق شفتيها جففتها. التقطت قارورة عطر ورشت منها على شعرها ، وخلف أذنيها ، ورقبتها ، وكل موضع يمكن أن ترشه . تشممتْ نفسها " لا بأس "، غير أنها حارت . ماذا تفعل بثنيات كم الفستان عند الإبطين. ستكشف هذه الثنيات هزالها. شدتْ الكولة إلى الخلف وحشتْ السوتيان بعدد من المناديل الورقية .

ابتسمتْ لما رأته . نعم ابتسمتْ . بدأ الأمر بارتعاشة فى الشفتين ونظرة اعجاب بما فعلتْ ، فلم يعد سوى الجورب والحذاء وتستعد للقيا الرجل الذى ينتظر فى غرفة الصالون .

غيمـــــة مـــلونـــة

(١)

هى الآن فى الطابق الحادى والعشرين . كلما نظرت للأسفل داهمها الدوار . أغلقتْ النافذة وألصقت خدها بالزجاج . بارد . ثلجى . أمامها السماء . بطن سوداء تخزها العمائر المقابلة . وفى البعيد .. هناك .. تحت .. بيوت الحى الذى جاءت منه .. وطيئة ... متلاحمة . ذبالاتها تكشف كثرة المسهدين فيها . غيمة رقيقة هشة انتثرت قرب عينيها . هى انفاسها وقد حال الزجاج بينها وبين الانعتاق . لكأنها نفثة اسبراى أو زَخَّة عطر. تتلون بألوان النيون خفى المصدر، أحمر . أصفر . أزرق . حصرتها بكفيها وتابعتْ الرطوبة إذ تسرى حتى رسغيها . لسعاته خفيفة متواترة ما لبثت أن تلاشت ، أيهما غلب الآخر فسكن ، دفؤها أم رطوبة الزجاج ؟ .. أخرجت أكثر من زفرة فازدادتْ الغيمة انتشاراً . سحبتْ كفيها فرأتْ حدوداً قد ارتسمت ، والغيمة طويلة متمدة .. "هذه الغيمة هى جسدى حينما استقلى له" . " لكأن هذه البطن هى بطنى " ." وهذه القطرة هى سُرَّتى " ." هاهى ذى علامات أصابعة إذ تجوس وتضغط " . " حمرة النيون هى دمى " . " دمى المحتبس ، دمى الفوار " . لم تحتمل . أحسَّتْ به يخور إذ تتملكه الرعشة . رائحة السجائر فى فمه تنفذ إليها. تختنقها. صفرة النيون وزرقته تعكس

حالة الجسد الضبابى. " أى شيطان أعطاك أيتها الزفرات شكل جسدى ؟". أعملتْ سبابتها يميناً ويساراً وقطعت كل ثنية أحست بزحيرة فوقها حملقت فى الأشلاء إذ ترتعش وتشخب ماء متقطرا وتنهدت .

(٢)

بين مسندى الفوتيه تقضم أظافرها وتنتظر . المجلة النسائية بعيدة عنها ومملة ، والمكيف معطل. بينه وبين التليفزيون ترابيزة الفيديو . خزانة شرائطه مزدحمة . بكل ما هو مقزز .فكرت. " تأخر " . لن تفلح الأغطية في حفظ الأكل دافئاً فوق السفرة . سيأتى بسيجارته وأخباره . بعضها صحيح وأكثرها ملفق . ينطلق بها لسانه كلما جاء ليوهمها بأنه معنى بمد خيوط التواصل. عن المكتب يتكلم ، عن المرور وأسعار أربطة العنق وزحمة الأسانسير . متحركا بين الشماعة والحمام وغرفة السفرة سيخلع ما عليه ويرتدى بيجامته. سيقول لها أن الأكل بارد . ومع هذا سيزدرده . من مكانها ستسمع طرقعات الملعقة والشوكة ، صوت تمزق الطعام تحت أضراسه . ربما يسأل عن قمصانه إن كانت قدكوتها ، وجواربه إن كانت قد غسلتها ، لكنه سيلتقط حبة الضغط من فوق الكومودينو ويجرع من الكوب الذى أعدته له ويتجشأ . سيشعل سيجارة ضارباً بكلام الطبيب عرض الحائط ، ويجلس إلى الكمبيوتر . يضع الدسك ويتخير برنامج الألعاب معلناً تحديه للجهاز الذى يغلبه دائماً ، بعد حركتين أو ثلاث سينهض متبرماً ويتخير عدداً من القنوات تعلم يقيناً أنه سيملها سريعا ،

فيلتقط شريطاً يدسه فى الفيديو ثم يندفس تحت الأغطية ويأخذ فى مراقبة الشاشة ، التى يتماوج فوقها اللحم الملتهب ، واضعاً علبة السجائر والولاعة والمنفضة فوق بطنه ، إلى أن يعلو شخيره ، وهى كما هى جالسة فى مكانها ترقب من وراء الزجاج بطن السماء والعمائر التى تخزها . ويحدث أن ينتهى الشريط فلا تغلق الجهاز ولا ترفع الأشياء الموضوعة فوق بطنه ،لكنها تنهض إلى الزجاج ، وتبحث فى التماعات الذبالات بين البيوت الوطيئة عن لمعة كانت تعرفها، فتعود الغيمة من جديد . ومن جديد تنعكس عليها ألوان النيون خفى المصدر .

فـــم ملـــوى

(١)

تأتى بأشيـاء عجيبة المـرأة التى تدخن. تجلس هادئة . هذا صـحيح ، لكنها ترسـم بالدخان قلوباً وأمواجـاً وحمامـاً يطير. تبنى فى الفـراغ بيوتا، ترفع أبراجاً وتزرع شجـراً، تُسيِّر سحباً كثيفة ، تنفخ فيها فـتسقطها زهوراً ومطراً.

(٢)

من مكمنى رأيتـهـا ترسم بالخيط الـتمـصاعـد من فـمهـا دائرة . دائرة واحدة .. وحيدة .. ثنتْ الخط فرسمتْ حاجباً وانفاً ، بنفتين ثبتتْ عينين . استملـتْ الحاجب الناقص والصقتْ الأذنين. ارعشتْ خطاً فـالتوى الفم ، يا للوجه الآدمى المدور . أصلع حزين ومشـحون بمالا أدريه من مشاعر . التواءة الفم هى التى أشاعتْ كل هذه الحـزن . نعم هى التواءة الفم . يالها من هموم تلك المحتواه بين طرفى هذه الالتواءة يالها من انفعالات .

(٣)

الوجـه ترجرج وانضـغط . ما أسـرع ترجـرجه وانضـغاطه . سـرى فى الفراغ وامتط . السيجارة الآن فى يدها .يدها المرتعشة وأصابعها التى بلون النيكوتين . عيناها على الوجه إذ يتجمع وينفـرش . تختلج شفتاها ويموج صدغاها . لانضغاطة أسنانها صرير . أى رعدة تلك التى ترعشها هكذا فى جلسته؟ . أى سر وراء اكتمال هذا الوجه ومراقبتها لتشظيه؟

(٤)

هو الآن شئ غير الشئ . مطموس وممزق إلا الفم ، إلا الهموم التى بين طرفيه . بشفتيها، تلك المرأة المستوحدة بنفسها، تلوك كلاماً . السيجارة فى المطفأة زوت ، هى الآن تكلم نفسها .. تغمغم وتهمهم .. تُقَلِّبُ علبة سجائرها بين يديها ، والوجه فوقها مجرد نتف . نتف يوزعها الفراغ ويحتويها . يمتصها وتذوب فيه .. إلا الفم الملوى .. هذا المحوم الهائم . ينتقل من جدار إلى جدار . لا يصعد . لا يهبط . ولا تتغير التواءته . تنهدتْ ونفثتْ آهة .. آهة صامتة .. لا صوت لها .. لكنها أرعشت الفم الدخانى ، أسالته فى ذرات دقيقة قد تستعصى على الرؤية ، لكنها مبثوثة فى أجواء الغرفة ، أحس بها وأوقن أنها لن تتبدد .

شـــرفتـــان

تُمسك بالقلم . ما تشعر به ليس بخفقة صدر . لا .. ولا ارتعاشة جسد. تكتب فى الورق أمامها "إنه انسياب لكيانى وارتجاف لروحى"، وهو ما يزال عاكفاً على آلته،على قيد خطوتين منها، فى الشرفة الملاصقة ، يعزف مستجيباً لالهامات وحيه ، فتسرى أنغامه وتنسرب إلى داخلها وتأسرها، تذيب كل مرارات النهار ، تطهرها وتجلوها فتشع ضياء وسناء . يتحرك القلم فى يدها ويكتب أشعاراً وأغنيات حلوة . ملتاعة . تطفو مشاعرها فوق النغم الرائق . يلتقطها سن القلم ، يذيبها حنانا وشغفا . يمزجها بمداد من دمها، يتوقف النغم ولا تتوقف. تعلم أن الصباح قد أطل.لكنها إذ تسمع وقع الخطوات المغادرة ، وصرير باب الشرفة إذ يغلق، وتوقن أنه الآن بداخل غرفته ، تطوى الأوراق على ما بها من أشعار، وتفتح باب شرفتها ، وخفيفة متوثبة تلقى بما كتبتْ إلى الشرفة الملاصقة .

قـرطـــــم

محـاطة بالدانتيلا والبـغاوات تجلس فى شـرفتها الـمطلة على الشارع الغـارق فى هدوئه . دائما تجلس هـكذا ، وحيـدة إلا من ببغـاواتها . تمـد يدها إلى علبة القرطم وتقبض على حفنة منها . تؤرجـحها في كفيها وتُثبتُ بعضا منها على أطراف أصـابعها تلالاً صغيرة دائمة التزلزل . تعـود فتلمها وتلقى رؤوس الرجال بالحبة تلو الحبة . لكن أحداً لا يبالى ، وعيناً واحدة لا ترفع إليها . تُحدثها نفسـهـا بأن تشير لأول ناظر بالصعود ، لكنها ترتعش فى كل مـرة وتلملم الدانتيـلا حول قـدها ، وتنهمك فى قـزقزة القـرطم .. وأكله .

تعـــاســـــة

ربما لم تبد تعيسة وهى تتفحص وجهها فى المرآة ، فمن غير السهل أن تغزو التعاسة وجهاً مليحاً مدوراً ينضح بالحيوية مثل وجههـا . لكنها بالقطع ليست مسرورة . ثمة شئ مخيف قد حدث . شئ مفزع . ستعترف. لن تخادع نفسها . لن تهرب ترواغ الوجه المبهور الذى . يطالعها . . نعم ما تخشـاه قد وقع . فى غفلة منها وقع . ترفعت هذا صحيح . كابرت هذا واقع . شمخـتْ وضربتْ كشحاً ، هذا مـا حدث . الأكثر أنهـا تعالتْ على هانيك الضعيفـات اللاتى يتباهين بذلتهن وانكسارهن. كل هذا فعلتـه واشتهرت بـه . لكن هاهى بلا مقدمات تجد نفسـها مشغولة بالتفكير فيه . ذلك السمهرى ، عسلى العينين ، الذى تتدلى الفتيات من سلسلة مفاتيحه." أتراه الحب الذى اسهدنى؟"." أتراه الحـب يا ربى ؟ " . " آه يا ويـلى .. ". وعادت تتفحص وجهها ، وودتْ لو بكتْ .

مـــاكيـــــاج

ماكياجها كثيف ، أبيض . لا . ليس هذا ماكياجاً . بل هو وجه آخر وجه مثبتٌ بلاصق أو بخيوط من المطاط . لو رفعت الشعر عن فوديها وفحصتُ خلف أذنيها فلربما أظهرت ما هو خاف .. بالتأكيد هو وجه آخر. هذه الهشاشة البيضاء المتماسكة كيف تكون مجرد ماكياج للوجه الذى كنتُ أظن أنى أعرفه ، وعيناها .. هاتان العينان ليستا سوى جُرحين يرجفان ويدفان برموش هى وأسنان السهام سواء . الشفتان قرمزيتان . تنطقان بالشهوة ، والأنف مغمور بالأبيض ، تبين منه نقطتان . مجرد نقطتين ، سوداوين ، مثوبتين بحمرة دكناء . هاأنذا أشعر بنفسى أهيم بهذا الوجه المستعار شغفا . أى غموض هذا الذى يسربل هذا الوجه الذى ابحث فى قسماته فلا أجد سوى الملاحة إذ تنفرش ألقاً يضئ بغير ما نيران ظاهرة . ليس ثمة من ظل . حتى حنية الأنف وانثناءة الحاجبين المزججين يُطل منهما ذات الضوء الشفيف الحانى.مع كل هذا الانفساح فثمة شئ غامض. خفى . أتراه فى رجفة العينين يختفى ، أم فى اهتزازة زاويتى الشفتين يتأرجح، أم تراه قد ذوى فى هذا الضوء الذى أصبحتُ لا أدرى حقاً ، هل ينسكب عليه أم ينبثق منه ؟ .. وددتُ لو استجبتُ لنوازعى ونهلتُ من هذا الضوء من هذا الوجه . من هاتين الشفتين ، لو أمسكت بتلابيب ذلك الغموض الشقى . لو ... أحسُ به أمامى يضحك ويتشقلب مستهزئاً بى دون أن يبين ، ترى أى متعة ، أيهذا الشئ الغامض، يُمكن أن أجنيها لو

ألصقت شفتى فوق الشفتين الخضيبتين ، أى رشف من رضابها سوف يذوب فى ويذوبنى ؟ ... آه لو تحممتُ بهذا الألق . لو تعريتُ ، وَعَرَّضتُ أعطافى لفيوضاته . لكنه ليس سوى وجه مستعار غير ذلك الوجه الذى كنتُ أظن أنى أعرفه .لا ليس هذا ماكياجا ، فلأعطها ظهرى، ولأنصرف.

كـــآبـــة

خاطتْ أكفان كثيرين من أحبائها ، فما من مكان فى جسدها إلا أصابته منهم طعنه أو كدمـة. قال أبوها: أنت بنتٌ كئيـبة . وقالت أمهـا : اضحكى تضحك لك الدنيا ، فنهضت وغـادرت مكمنها ، وسارتْ فى ذلك الصباح الباكر باتجاه المقابر .

غضـــــوب

كلما غـضبتْ منه تفور وتثور . تحـطم الأثاث وتبقر الحشـايا . تنهال على الحوائط لكماً وركـلا، وعلى ملابسـها تمزيقاً وشـقا ، قد ترطم زجاج النوافذ برأسـها فتكسرها ، وقـد تمسك بأمواسه وتقطع أوردتهـا ،لكنها لا تفكر للحظة أن توصـد الأبواب التى تفصـل بينها وبينه ، فـهى تعلم أنه فى كل مرة سيدخل ويريح رأسها على صدره .

شمعـــات تنوس فى مســـارب السفـــر

١ - المحطة الأخيرة
٢ - اتكـــاءة
٣ - خجـــل
٤ - باتجاه نفق المترو
٥ - مصر الواسعة العريضة
٦ - سفـــر

المحطة الأخيرة

الأتوبيس المضجر يقطع بنا الفراغ كأبطأ ما يكون. إلى جوارها أجلس، لكنها مشغولة بالأصفر المترامى . الخواء لا حدود له ، والهواء يشوينا . متوددا أمسك السأم برأسى . نفخ فى عينىَّ وأسقط جفونى ، ضاقتْ الفواصل بين ذراعينا فتلامسنا . مالت رأسى إلى كتفها فأدارت وجهها ناحيتى . نعم بالتأكيد أدارت وجهها ناحيتى ، لكنها ظلت على هدوئها وعاودتْ - كما خمنتُ - النظر عبر النافذة . فكرتُ فيما لو استحالت الصفرة الشاسعة إلى مروج خضراء وانتعش الهواء وترطب . أحسست برأسى وقد انزلق إلى صدرها . لدن . رطب . ومريح . فى البداية شعرت بألفة أنفاسها إذ تتخلل فروة شعرى، ويذقنها إذ تمس صدغى ، وبعطرها إذ يغزو صدرى ويحتوينى. المروج ظهرت والهواء أصبح أكثر انعاشا، وجهها انحدر ونام فوق جانب من وجهى . أعرفُ نفسى إذ أُشخَّر . هى أيضا تُشَخَّر . اهتز الأتوبيس فإذا بنا فى المحطة الأخيرة . ياه .. المحطة الأخيرة .. ونهضنا ، كل منا إلى سبيله .

سألته عن موعد الطائرة ، فقال العاشرة .

مهـرولة اجتازت البـوابات والحقائب والصـفوف . إلى الشرفـة وزُمر المـودعـين انقـذفتْ . لكن المـراسم كـلهـا كـانت قـد انتـهت ، ومناديل المـودعين ارتدَّت لتـوها من الهـواء إلى العيـون . سـألتْ من تعرفـهم من أصحـابه . قالوا ودعنا وطار فتركـتهم واتكأتْ على سور الشـرفة . لانثناءة السيـرة فى جذعها ليـست مجرد انثناءة . نعم قبـضت بكفيها علـى عارضة السـور الحديدى، واسلمتْ وجهها لالتـماعات الشمس على الجسم الهادر إذ ينساب لأعلى ، ولا نطواءات العجلات تحت البطن البيضاء ، ولحروف الكتابة إذ تصغر وتتلاشى . نعم فعلت كل هذا فى وقفتها ، وربما مائلت أو ما ثلها أغلب المتشبثين والمـتشبثات بالسور، وربما زادت أو قلتْ درجة التركيز أو التظاهر به ، لكن اتكاءتها مختلفة . نعم مختلفة .. فهى لا تنظر ، بل تتأمل ، وثمة رعدات تعتريها ، رعدات خفـيفة متصلة ، لا تهز جذعها ، ولا ترعش فسـتانها .فـقط جلدها . ربما لاحظ البـعض ذبذبات الجلد فى المنطقـة المكشـوفة من ذراعـيـها ، وربمـا لم يلاحظ . لكن ما هو واضح للجميع تلك العلامات الغامضة التى تطوف فوق وجهها. علامات لا تقدر على إيقافها ويصعب على من يراها تفـسيرها . مَدَّ أحدهم يده لكنها ظلت على اتكاءتها، وظل انبعاج بطنها ملامـسا لحديد السور ، كان بارداً ، وكان هذا يريحها .

خـجـــل

هاهى ذى تقطع الرصيف جيئة وذهابا . بين الساعة والسيمافور تروح وتجئ . خطاها متئدة ، ثابتة . عيناها إلى البعيد تذهبان تنتشى إذ تسمع الصفير وجلبة العجلات . تُصلح من هندامها ، وتلقى بنظرة سريعة إلى المرآة . تفرش على وجهها ابتسامة عريضة وتزاحم الواقفين . لكنه لا يُطل من أى نافذة تمر عليها ، ولا ينزل من أى باب . تقف طويلاً ثم تُحنى رأسها وتفكر فى السبب الذى منعه من الحضور وإذ تخفت أصوات الآخرين والأخريات ، ويكاد المكان يخلو إلا منها ، تستدير وتبدأ فى التحرك مضطربة ، متهالكة ، وخجلى من شئ ما .

باتجاه نفق المترو

لمحتُها فى نهر الطريق . تمشى بين السيارات وعيناها نصف مغمضتين . من بين أكتاف المارة رأيتها . شعاع خفى من ضوء شدنى إلى وجهها ، بالفعل ، عيناها نصف مغمضتين . زاحمت المارقين من حولى لأراها بشكل أفضل . حقيبتها معلقة إلى كتفها ، وذراعاها لا يكادان يتحركان ، والأضواء الصفراء والحمراء تنطبع فوق التايير . نائمة هى أم يقظة ؟ .. هاتان العينان تخفيان ما يجب أن أعرفه . تشيان بنعاس أفلت أو بنعاس قادم ، بغير النعاس لا تشيان .لكنها ليست نائمة . لا يمكن أن تكون نائمة . شعرها ثابت وأطراف التايير لا تخفق. السارينات هدأت والعجلات توقفت ريثما تسرى .. تسرى، مثلما يسرى المنومون، بين الأصفر والأحمر ، والإشارة هناك خضراء . خفق قلبى فتركت الرصيف ومرقت بين السيارات وناديتها . لكنها لم تسمعنى . بالتأكيد لم تسمعنى . ليتنى لم انتظر كل هذا الوقت قبل أن أناديها ، رأيتها تصعد إلى الرصيف المقابل . لكأنما أضواء الفلورسنت ما انصبَّت إلا عليها وحدها ، فبانت لى بين الزحام المنحدر إلى نفق المترو بؤرة من البهاء المشع ، إلا أن عينيها ما زالتا مغمضتين . وثبتُ إلى الرصيف وتحممتُ بأضواء الفلورسنت غير أنها كانت قد انحدرت مع المنحدرين . سابقت الأجسام المُجَّدة فى سيرها ، وانزلقت إلى النفق ، لكن الباب كان قد غيبها . اجتزته فتشاكلتْ علّ المسارب وضاعت منى. ضاعتْ تماماً .

ولد وبنت. أشـرف وسعـدية . فى بيتـين متجـاورين ولُدا.فى وقتـين مختلفـين لكنهما متقاربين . أشـرف كفلقة القمر، وسعـدية تبارك الخلاق .من نعومة أظفـارهما وهما معاً . حـبوا معاً . لعبـا معاً . طاردا البط . قلدا قفزات الضـفادع ، وهشا على الغنم . وحينمـا شبا اكتـشفا أنهما عـاشقان ولهان كل منهمـا بالآخر . اتفقا على الزواج إلا أن والديهمـا ، وقد فرقت بينهمـا الضغائن ، فـصلا بينهمـا . أقسم كل منهمـا برأس أبيه ألا تتم هذه الزيجة .

واهاً لك يا أشرف . عـينى عليك يا سعـدية ، بئا هموم قلبـيهمـا لعزيز وحميدة فـفاحت رائحـة الشواء الذى بداخلـهما وتعـبأت بهـا أنوف أهل القرية ، فى غرفتين ببيت كل منهما حُبسا. لأن البيت بجوار البيت فالجدار لصق الجدار . اكتشفا بعيون المحبين الرحيمة شقا. شق يا أشرف . شق يا سعدية .

عبر الشق تناجيا بأعـذب أحاديث الهوى . لكنه شق نحيل ورفيع . لو أوسعـاه لكشف أمرهمـا . ليت شفـانا تلتقى يا سـعدية . ليـتهـا يا أشرف. وتنهمر قبـلاتهما على الجدار . إذا دخل أحدهم على أى منهـما خبأ الشق بجسمه . كحّ أو تنحنح ليفهم الآخر فيكف ويحمى نفسه . وما زالا يقبلان الجدار حتى حال لونه وتآكل طلاؤه .

قال لهـا نهرب يا سـعدية ، فقـالت نعم .. نهرب يا أشـرف. نهرب إلى الكفر المـجاور ونتزوج هناك . قـال فى الكفر سيـأتوننا .. أبى وأبوك وكل ذى نبـوت . قالـت نذهب للمـركز . قـال فى المـركـز أيضاً سـيـأيتنا أبى وأبوك.. فلنذهب لمصـر الواسعة العريضـة . قالت نعم .. مصـر واسعة .. واسعة وعريضة .

فى مـصر الواسـعة العـريضة همـا الآن ، ويحدث أن يكونا ملتـصقـين فيـأتيها من أعلى السلم صـوت يصرخ أشرف يا زفت .. سـعدية يالثيـمة.. فيدلقان جلا بيبهما فوق جسميهما ويهرولان لتلبية نداء السلم العالى.

سـفر

قريرة العينين غادرتنا .

مكلومة الفؤاد عادت .

مهتاجة النفس ألقتْ بنفسها إلى النيل .

" طهرنى يا نيل " . " اغسلنى يا نيْل " . " طيبنى يا نيل " .

غسل النيل ما علق بها من أدران السفر ، ولم يغسل أهداب جروحها .

" لماذا يا نيل ؟ "

وتكومتْ عند البر وراحت تأخذ من طين الأرض وتضع فوق رأسها . تأخذ من طينها وتضع . تأخذ وتضع . تأخذ وتأخذ .

القوارير إذ تهجس بالامتلاء

١- دمية

٢- أمنية

٣- ارتجافة

٤- عينان مفتوحتان

٥- تكور

دمـــــية

الوحيدة فى البيت . جاء بها بعد الحاح . بنت لها فم وعينان، شعر ورقبة ، كفان وقدمان ، رأسها جميل وجسمها مشوه، إلا أنه متناسق . لا صدر ، لا خصر ، ولا ردفان . الكفان ملتصقان فى كتلة مربعة ، والقدمان أيضاً . دونما ذراعين أو ساقين جاء بها . مغيظاً مكموداً اشتراها ورماها على صدرها ، ففاجأته وأحبتها .

فوق السرير تضعها ،فى الفراغ بينها وبينه. أعدتْ لها أربجوجه صغيرة ، وبطانية صغيرة ، ووسادة على قدر رأسها الصغير. لكنه يأتى مغاضباً ويأخذها . يذهب إلى الأنترية ويقذفها إلى زاوية الكنبة ، أو يرميها فوق التليفزيون ، وغالباً ما يدفسها داخل نيش السفرة .

هو الآن فى الخارج . لا يأتى إلا ليأكل أو ينام .لا يريدها على السرير ، لا يريدها أمامه . تعرف أنه الآن مع أصحابه فى المقهى أو فى الكازينو . تحسست الشعر الأصفر . لفَّتْ خصلة منه حول إصبعها. سوتها . لثمتها ، ولثمتْ الجبهة الملساء والخدين . انقلبتْ اللثمات إلى قبلات . قبلات عربيدة ، لها صوت . ترق حتى لكأنها شقشقة ، وتغلظ لكأنها قباع . هبطتْ إلى عنقها ، دغدغته بأنفها وذقنها . ضحكت وقهقهت ، وانزلقت إلى القدمين الحافيتين ، لثمتهما. ستعمل (لكلوكا) تزمه برباط من ستان ليدفئهما . لو كان لك ساقان وذراعان .. لو كان لك صدر وخصر لصنعتُ

لك أجمل (كلوت) وفصّلتُ لك أحسن فستان وغطيت ذراعيك بالغوايش ، وألبستك ساعة تعمل وتقول تك تك ، لو كانت أصابعك مكتملة ، لغزلتُ لك جوانتى تغيظين به البنات . لو كانت لك ساقان وذراعان .. فقط ساقان وذراعان لا شتريتُ لك عربة جميلة . فيها مرتبة ومخدة ولحاف وشخاليل، وعلقت فيها عصفوراً يناديك .. صو .. صو .. صو صو صو. أنت جميلة ومقطقطة . شعرك أصفر وعيناك زرقاوان ، أما فمك فخاتم سليمان . خاتم أحمر . مرسوم فى حجم النبقة . والحلق سيأخذ من كل أذن (حتة) . الله يعمر بيتك يا خالتى . خافتْ علىّ فأخذتك عندها . وخرمتْ أذنيك ، فألبستُك الحلق وأقمت لك حفلاً ، رقصتْ فيه خالتى وطبّلَتْ وزغردتْ . بخرتُكِ وهنتكِ وخزّأتُ عين الحسود .

ما هذا الصوت ؟ .. هل عاد ؟ .. تغطى .. تغطى .. دارى وجهك وإلا أخذك ورماك هناك .. هذا (الجلنف) .. إنه مغتاظ .. يغار منك .. مع أنه هو الذى جاء بك . هو الذى شوهك . جاء بك على هيئته . ياه .. إنها بوسى .. لحستْ اللبن ولم تنم. بوسى أحسن منه . بُعده عن البيت غنيمة. تعالى يا بوسى .. لا عبى النونو .. هووووه .. نامى جنبها .. هووووه .. نته هووووه . ومن فتحة القميص أخرجتْ ثديها . مسحته والصقتْ الحلمة بالفم المرسوم بالأحمر .

امـــــنية

(١)

من خلف الزجاج شخصا ببصريهما تجاه السماء وأسطح البيوت العالية . العرق يغطيهما وملاءة السرير تجمعهما .

حركتْ شفتيها وهَمَّتْ أن تسأله : هل تحبنى؟ .. لكنه بدا لها سؤالاً بلامعنى فسكتتْ . صَعَّدَ زفرة : آه لو تلدين . وضعتْ يدها على فمه ولامته بعينيها .أزاح اليد وطمأنها : لا تخافى، أنا متمسك بك.قالت : تعال نذهب للدكاترة . هتف: لا .

(٢)

تعلم أنه داخ بين عياداتهم ، ورأته بعينيها يُخفى أوراق عجزة ، وعرفتْ من الصيدلى سر الأدوية منزوعة الأغلفة التى يخفيها فى أدراجه . لو واجهته بما تعرف فلربما ضربها ، ولربماطعن نفسه ،أو طلقها .

(٣)

قال : حياتنا تكمل بالولد . قالتْ : نعم .قال : هاتى لي ولدا . استعرضتْ فى ذهنها كل الفحول المحيطين بها وانتخبتْ أحدهم.قالتْ : وإن جاءت بنتاً ؟ ... ابتسم ابتسامة ملوية " خيروبركة" . فعادتْ تشخص ببصرها تجاه السماء والأسطح العالية ، بينما انقلب هو على أحد جنبيه مفكراً باسترابة : " من أين يا ترى ستأتى له بالبنت؟ " .. وعض على نواجذه ، ولم يطرف لأيهما جفن .

ارتجافـــــة

أضاء الأباجورة فتثاءبتْ..فتحتْ عينيها وتثاءبتْ تمطتْ ففاجأها : " ربما جاءنا طفلٌ " . ارتجفتْ . ارتج السرير لارتجافتها وأز . باتجاهه مالتْ فانكشف عرى ظهرها وعجيزتها ، جلست مهدلة الثديين مرجوفة عيناها عليه .. على شفتيه اللتين نطقتا ثم انطبقتا على السيجارة المشتعلة لتوها . شعرها المهوش مليد بالعرق والملاءة سقطتْ إلى مادون السرة .

تأملتْ شحوب وجهها فى المرآة المواجهة وأحستْ بانضغاطه العرق تحت إبطها . لفها الدخان الذى ينفثه وخنقها . دخان هو والسم سواء . امتدت أصابعه تعبث بظهرها فانتفضت . شعرت بأمعائها تتقلص. جيوش تدب فى عروقها وقذائف تدوى .

لم تكلمه . لم تعقب عليه . فقط لَمّت ارتجافتها واشتملت بالملاءة ونهضت . إلى السجادة انثنتْ . التقطتْ ملابسها وهرولت إلى الحمام . كفٌ على فمها والأخرى بما فيها من ملابس تضغط بها على بطنها . من وراء الباب انسرب صوتها إذ تتقيأ. صوتٌ هو مزيج من عواء ومواء. هدر صوت ماء ثم عم صمتٌ ، بعدها كاملة الهندام مكروشة النفس خرجتْ التقطت حقيبة يدها واتجهت إلى باب الشقة . لم توجه للجالس يدخن نظرة واحدة .. مجرد نظرة واحدة .. وهو أيضاً لم يهتم .

عـــينان مفتوحـــتان

هكذا خلقـها الله . إن كنت مـاضيـاً فى طريقك فلن تراها مطلقـاً. لن تراها إلا إذا نظرت إلى الأسفل ، مثلماً تفـعل حينما تبحث عن شئ سقط ، أو لتطمـئن على أن رباط حـذائك لم يُفك. إن ركـعت مـثلمـا يحـدث فى الصلاة فإن الفارق بين رأسـها وجذعك المثنى سيكون كبـيراً ، وإن جثوت على ركبتيك واستقـمت بجزعك فلربما طالتْ رأسها ، إن كنت أنت على شئ من القصـر ، أدنى أضلاع صـدرك ، إن أردت أن تتأملها فـليس أمامك إلا أن تنبطح أرضاً ، ولـربما أفادك أن تتكئ على مـرفقيـك حتى تكون فى مواجهتها بالتمام .

وجه سـبحان الخـلاق . عينان رائقتـان ومسحـوبتان بما لو تمـتعت به واحـدة من الطويلات لسـبتْ قلوباً لا حصـرلهـا . أنف دقيق مـنمنم ، فيـه استواء واستـدارة يهتفان بقدرة الخالق ، وشـفتان ، آه من الشفتيـن ، نبقتان لهمـا لون الفروالة ونداوة حَبّ الرُمَّان . أمـا الخدان فلا تعـرف إن كان من اللبن المـخلوط بماء الورد أم همـا ورقتـان من وردة المخـمل .. لا.. لا تصدقنى ..فالمخمل إن قورن بهما كان خشنا ومجرَّحاً .

أما الصـدر ففيه بعـض من استدارة البرتقـال ،لكنه محشـور فى قفص يهبط إلى سـاقين قد تـتبينهـما بالفعل ،لكنك لن تـقدر على تمـيز أى شئ فيهما . عبثاً تبحث عن الفخـدين والركبتين والسـمانتين ، ربما هجست بأن

فستانها ،الذى يضيق على دمية ، يخفى مالم تتبينه ، لكن ثق بأن شيئاً مما هجست به ليس حقيقياً.بالفعل لن تتبين شيئاً من هاتين الساقين.أنا طبيبها. بالأصح الطبيب الذى أتوا بها إليه . وضعوها على المكتب أمامى وقالوا أكشف.أهم ما فى ساقيها قدماها . كاملتان ، متناسقتان، وأظافرها جميلة ، جميلة جداً . حينما أدرتها وهذا ما ستلاحظه إذا ما أدرتها أنت أو أدرت بنفسك حولها رأيت الحدبة . مثلثة . هرمٌ متساوق البناء لكنه مقلوب إلى جنبه .

قالوا: اكشف يا دكتور، فكشفت. استسلمتْ تماماً لما أطلب أو أفعل، لحمها أبيض .. لونها رائق وأعضاؤها مكتملة .. حتى الشعر رأيته حيث يجب أن يكون ، لم يلفت انتباهى منها سوى عينيها ، على اتساعهما فتحتهما ، وباتساعهما ظلت ترقبنى . المسألة وضحت تماماً لى . نظرت حوالى علّي أرى من يناظرها فى الحجم فلم أجد ، ولما لم يكن هذا شرطاً فقد قلتُ ببساطة: مبروك .. حامل . عندها .. وعندها فقط تلاطمت عيون من جاءوا بها . نظروا إلى وإليها وإلى بعضهم البعض ، فيما ظلت هى ترقبنى بعينيها المفتوحتين على اتساعهما .

تكـــور

بيديهـا الناحلتيـن أحاطتْ تكور بطنهـا . أغلقتْ عينيـها فتـدلتْ ظلال رموشـها سـهاماً مـهشمة فـوق شحوب خديهـا . لعله القلق ينهش داخلها، وإلا ما سر هذه الرجـفات التى تعترى ذقنها ؟ .. وما سـبب هذه التقلصات أسفل عينيها ؟ .. هاهى ذى تفتح عينيهـا على اتساعهما فيندلق الفزع على وجهـها ، ينحرف بفـمها فـيعوج ويسيـل منه اللعاب على بياض القـميص المربوط من الظهر .

" آه " .. أفلتتْ منها ضعيفة مرجـوفة . على الحائط انبعج ظلها المشوه واستطال وجـهها وتعرج ضـغطتْ الزر وعضتْ كفيـها والحاشيـة وحديد المـسندين انضغـطتْ بطنها فـصـرختْ. بأعلى ما فـيـها صـرختْ. انهبـد السـقف فوقـها أو صعـد السـرير إليه . لا تمـلك إلا أن تصرخ .. تصـرخ وتعض . طار قطن كثيف من الوسادة وابتل فخذاها . سال ماء على ساقيها وهبط إلى الملاءة. عوتْ فـدخلتْ الممرضة ومن خلفها الطبـيب .. أخيراً الممـرضة .. أخيرا الطبـيب . نقلاها إلى الترولـلـى . خرجا بها إلى المـمـر ومنه إلى غرفة العمليات .

بعدما وضـعا ساقيهـا كل واحدة منهما على الحـامل ، وقبل أن يبدأ المتـزاحمون تحت المصـباح أعمالهم ، وإذ تُقَلبُ عـينيها المروعـتين بين قفـازاتهم وأقنعتـهم ، انشق صدرها عن صـرخة ممـدودة ومن بين الأكف التى أمسكتْ بكتفيها تثبتهما زأرت :" أمى .. هاتوا لى أمى " . وكانتْ تعلم جيداً أن أمها قد غادرتْ الدنيا وهى تلدها .

لـكل مخلوقـات الله أفئـدة

١- بلبـــل
٢- قطـــة
٣- عـــنزة
٤- خنفســاء
٥- سرطـــنة
٦- لمـــاذا ؟
٧- أم عـــبده

بـلبـــــل

نعم هو البلبل يغرد .

أى شـجو حـزين لفهـا به هذا المـخلوق المنفـرد بذاته فوق غـصن أو داخل عش لا يُرى ؟ .. لكأنه عرف أنها ما جاءت إلى خضرة هذا الفنن إلا طلباً للـسلوى . هاهى ذى نغماته تتكرر وتتبدل مثلما يفعل العازفون اختباراً لآلاتهم .

ناى هذا أم قيثارة أثيرية ؟

لكأنك حططت داخل صـرها أيهـا البلبل وسحـبت خـيطاً من شغـاف قلبها وطرت به مهتزاً موصـولاً إلى حيث تقبع فى مكانك المجهول . ترفق بها ولا تدفق نغماتك بهذا القدر من القوة والاندفاع ، فالخيط يتأرجح وهى ترتجف .

كأنك أيها العـابث قد استغنيت عـما تلك واستبدلـت صفارة رعناء به، أتسخر منها لترجف قلبها، أم هى انفلاتات الريح إذ تعصف بصدرك حيث تقف ولا تبين ؟ .

أيها الصادح المغر .. لا تستعـرض مهاراتك فما هى إلا مخلوق واهن ونغـماتك الآن هى والهـمس سـواء . لكأنها اشـتـعال الأنين فى صـدرها المتـوجع ، لكأنها تحـمل صهـد الزفرات الملتـاعة ، ولكأنك تحـوم حول السهم الذى أصماها عشقاً .

رطب أيها البلبل التهاب همسك بشئ من المرح. كن نبيلاً وافعل ، فهى على ما تكابده من وقدة الجوى تشعر بالنشوة تسرى فى حناياها . امرح أو اسكتْ .

لا .. لا تسكتْ . لا تقطع الخيط الذى انتزعته وإلا أزدت قلبها إدماءً وألما .

كم هى شجية هذه النغمات التى تشفق عليها بها . حلوة ودافئة. من عميق صدرك تأتى . فيها أنَّات شاكية ربما ، فيها ابتهالات استرحام ربما ، لكن الأكيد أن فيها من الرنَّات ما تستريح هى إليه.رنَّات من ذلة أو خجل . فاصدح أيها البلبل ، فالعبير يتضوع فى الأرجاء ، والسماء تنحنى فوقك أيها الخفى وفوقها، والظلمة آخذة فى الانقشاع ، والنجوم تستحيل إلى لمعات من ندى . وهاهى وقد زالت عنها كربتها تأخذ فى البكاء .

قطـــــــة

من أين جاءت هذه القطة ؟ .. كيف دخلتْ وفـرضتْ نفـسها ، هكذا ، وسط كل هذه العـتـمـة ؟ .. فـراؤها الأبيض يشع ، وعـيناها الخـضـراوان تضيئـان .. أى فُرجة خفية انفـتحت لها وسربتها إلى الحـصن الذى أغلقته على أحزانها ووحدتها ؟.. أى رائحة جذبتها إلى حيث استكنتْ وتبلدتْ ؟

هزتْ القطة ذيلهـا ورنتْ باتجـاهها . حـبلٌ من ضوء رائق يشـدها إلى البلورتين المـدورتين فى وجههـا. انحنت إليهـا والتقطتهـا ، أراحتـها على ذراعيها ووسـدتها خدها "أيتها الحلوة الناعمـة " اتجهتْ بها إلى المطبخ ، الأوانى مبعثرة والفوضى تعم كل الأشياء .

أخرجتْ علبة تونة . فتحتها ووقفتْ ترقبها . تابعت خُفيها الأماميين إذا يقبضان على العلبة . تقبضان عليـها فى حنو ورقة . أحضرت طبقاً وفتحت الصنبور . لا .. اللبن أفضـل . أتتْ به من الثلاجة سكبته فـشربتْ ولحستْ شواربها ثم تمطتْ .

خرجتْ إلى الأنـتربة فتبعـتها . أجلسـتهـا على الأريكة وراحت تملى النظر منهـا . " كم هى وديعة وجمـيلة يا ربى ". دفنتْ أصابعـها فى نعـومة الفرو ثم عادتْ وسـوته . لثمتْ رأسها وتركـتها تتعلق بصـدرها .. صدرها الذى عجف .. ومن تلقاء نفـسها .. دونما ضغط أو ضجـيج .. من غير أن تتـصل بهـا أمهـا المـتحـسـرة دوما ، أو تمـديدها إلى خطابـات الصديقـة

المهاجرة التى تطالبها بترك ما هى فيه .. بهدوء .. وبلا إيعاز من أحد .. نهضتْ إلى الستائر .. أزاحتها وفتحتْ النوافذ فانسكب الضوء قوياً نفاذاً ، واندفق النسيم دافئاً رقراقا.

أمسكت الرشاشة وروتْ النباتات المائلة فى الأركان. مسحتْ أوراقها، ونفضتْ الأتربة من فوق المناضد ومساند الأرائك والفازات . صعدت إلى صور الذين غادروها . أزالتْ خيوط العنكبوت ونزعتْ أشرطة الحداد. مسحت المرايا والشريات. ما من شئ إلا مسته . مامن شئ إلا زحزحته ، استعرضت المكان فوجدته نظيفاً مريحاًومبهجاً .

وفى قلب الفوتيه استلقت القطة تستحم بالضوء وتلعق فراءها ، ترنو إليها أينما تحركتْ . وأينما تحركتْ نظرت إليها. قد تنهد وقد لا تنهد، لكنها فى كل مرة تبسط ملامحها وتبسم ابتسامتها لطفل غريرٍ غافل. قبل أن تجلس مسحتْ المسجل ودستْ فيه شريطاً فسرى فى هواء الغرفة صوت عبد الحليم . حلو ورخيم ، بمشطها سوتْ ما نفر من الفراء هدهدتها ورددتْ ورا عبد الحليم ما يقول . نظرتْ إلى وجهها فى المرآة فرأت خديها قد توردا . ابتسمت لنفسها هذه المرة واتجهت إلى الحمام . تبعتها القطة فواربت الباب علها تدخل، لكنها مطت جسمها ورقدت أمامه، خرجتْ إلى غرفة نومها فسبقتها القطة . فتحتْ الدولاب وارتدتْ أحلى ملابسها ، تقلدت أفضل عقد لديها وتعطرتْ . كحلتْ عينيها ومسحتْ على شفتيها ببعض الأحمر . استعرضت نفسها أمام عينى القطة ثم حملتها وخرجت بها إلى الشارع ، وما يزال صوت عبد الحليم يتردد داخل المنزل .

عـــــنزة

من الصحراء جاءت . إلى الصحراء تمضى . بطول الأسفلت تسوق أغنامها . تجوس بها فى الحارات والأزقة . معها أختها الصغيرة والكلب. تعرف أقصر الطرق للخروج من غابة الأسفلت والأسمنت والعيون الجائعة.فى يدها غصن شجرة .غصن جاف كغصنها.لا تضرب به أيا منها. لا تمس ذيلاً أو ظهراً ، لكن الحركة الواحدة من طرفها تعنى أمراً أو إشارة. تصيح بصوت مدغوم يخرج من تحت برقعها فتلوى الأجساد المتبخترة أعناقها ، تستدير أو تنثنى وتهطع رؤوسها بالاتجاه الذى تريده هى. المضرب هناك .. وراء خرسانة هذا البندر بمسافة .. بحثتْ عن العنزة البيضاء فلم تجدها ، زجرتْ الكلب ولوحتْ له بطرف العصا فاستدار صرختْ فى أختها ولحقتْ بالكلب ، إلى الحارات والأزقة انطلقا . هو يتشمم وهى تبحث فى البعر والأوراق مأكولة الأطراف العنزة البيضاء من أنظف العنزات ، العنزة البيضاء من أملح العنزات . مستكينة وهادئة . أميز ما فيها عيناها النجلاوان. تجالسها وتنام فى حضنها . هاهو ذا الأسفلت يغريها ويختطفها ، لكنها ستنتزعها من هذا الأسفلت المصهور وتستعيدها، ليست بها حاجة لسؤال المارة ، فكل العلامات تدل على أنهما فى طريقهما إليها. هى انحناءة أو انحناءتان ويعثران عليها . رائحتها تدل عليها.فى العطفة المقبلة ستجدها . هذا أكيد ، هزة خلخال واحدة وتأتيها

العنزة فرحة ومعتذرة . لكنها لم تأتْ. انثنتْ يتقدمها كلبها ثم توقفتْ ، توقف كلبها أيضا ، عثرا عليها . نعم عثرا عليها .. مستكنة كعهدها ، هادئة .. أمامها مباشرة تقف..فى الظل الذى يغطى نصف الخرابة المفتوحة على الأسفلت ، وفوقها جدى من البندر .. يلاقحها .

الخيمة أمـام البحر ، والبحر ساكن . لا مـوج . لا صيد . لا نوارس . ما بين الخيمة والبحر يجلسان. كرسيان من مشمع وترابيزة من خشب وكتاب مقلوب. الرمل أمـامهما أسود رطيب والمـاء أزرق باهت، وهناك .. حيث يلتقى خط الماء بخط السماء تتفلطح غيشات رصاصية .

دخلتْ الخيمـة . ارتدتْ المـايوه وخرجت إلى البحـر. تأمل تأرجح ردفيها وهى تخوض فى الماء . ملولاً تابع انثناءات أصابعها إذ تشد أطراف المايوه على بدايـات التكور . لما احتـوتها الزرقة ، وأصـبح شعرها مـجرد نقطة. نهض ودخل الخيـمـة . لملم ما خـلعتـه وأزاحـه جانبـاً ثم أمـسك بالتُرمْس وصبَّ الشاى الجاهز فى كوب وعاد إلى كرسيه .

جاءته وقالت : البحر جميل .. تعال أغطس معى .

اعـتـصم بالكوب فـأزاحـتـه . نزعتْ عـنه التي شـيـرت وفَكَّتْ حـزام الشورت. مثلها أصبح مجرداً إلا من المايوه. اسـتعرضتْ مفاتنه ثم سحبته إلى البحر.

غطست تحت الماء وتمدد هو فوقه .

سبحتْ من حـوله ومن تحته. ناوشتـه بالماء ودغدغتْ باطنى قـدميه ، فلم يفـعل أكثـر من الانقلاب على ظهـره . جاورته فـهالهـا اتساع السـماء وعمقها.

قالتْ : يا لئيم .. أنت تنظر إلى السماء .

لكنه كان مغمض العينين .

وثبتْ فوقه وغسطتْ به فانتشل نفسه وانبثق مفزوعاً . غبَّ الهوا ونثر الما من فمه ومنخاره. مسرعا جَدَّفَ بذراعيه وساقيه باتجاه الشاطئ.

اقتحمتْ عليه الخيمة فوجدته قد تجرد من لباس البحر .

قالت : دمك ثقيل .

وخلعتْ هي أيضاً .

رمى إليها البشكير فالتفتْ به ، ارتدى التي شيرت ودس ساقيه فى الشورت وناولها مشطاً ومرآة .

قالتْ : جوعانة.

أخرج من الحقيبة المعلقة إلى العامود أطباقاً وساندوتشات وعنقودى عنب .

قالتْ : سآكل بالخارج .

اخرج الأطباق طبقاً طبقاً ورصها فوق الترابيزة .

خرجت إليه وقد ارتدتْ ملابسها ومشطت شعرها ووضعت بعض الكريمات ، رأته راكعاً على قدميه يتأمل خنفساء تمشى فوق أحد الأحبال التى تشد الخيمة

قالتْ : تعال .. كُلْ .

لكنه مد إصبعاً داعب به الخنفساء .

وقفتْ قبالته وتأملت الخنفساء.سوداء ،صغيرة وتمشى ببطء.. ببطء قاتل ، مدتْ كفها وأطاحتْ بها فارتطمتْ بوجهه ثم سقطتْ على الرمل فسحقتها وجذبته إلى الترابيزة :

- قُمْ كُلْ

قام . لكنه لم يأكل . وإذ تهم هى بقضم أول ساندوتش لمحت الخنفساء تنهض من جديد. رأتها تصعد الوتد وتنسلق وتمشى عليه باتجاه الخيمة ، فيما كان هو يُحدِّق فى سمرة الرمل الرطيب وزرقة الماء وتفلطح الغبشات الرصاصية التى ظلت ساكنه ، هناك .. عن التقاء خط الماء بخط السماء.

سـرطـنة

هنا .. نعم كنا هنا . جالسين على الرمل .. هنا ..أمامنا البحر ... ماء وزرقة وبود .. وفوقنا الكورنيش .. ضجيج ومارة وسور. عيون الواقفين إلى السور تخزنا. ما من مكان نلجأ إليه منهم. تدارينا بهذه التلة، لكن عين الشرطى خايلتنا . جيوبنا خاوية والوجد يضنينا . هى حلالى وأنا حلالها ، وما من شئ متاح .

انتقلنا إلى ذلك الكشك المهدم . هناك . فإذابرجل يتغوط وسط صفوف متراصة من مخلفات سابقيه. كدنا نتقيأ فتحامينا بمشاعرنا وهرولنا إلى هنا .. تعالى .. إلي هنا .. هنا أقرب إلى البحر. جلسنا وأعطينا ظهرينا للكورنيش . تساندنا فتحلقنا رهط من اللاهثين ، أمطرونا بأغنياتهم البذيئة وطرقعات صنوجهم. لم ينصرفوا إلا بعدما أبعد كل منا كتفه عن الآخر.

نهضنا وتقدمنا نحو الشط ، مركبان . إحداهما مقلوبة ، توجهنا إلى الأخرى . هنا .. هنا .. كانت هنا . أسفل منها عرق عريض من خشب ، كتلة ضخمة من شبك ، ونفايات من خيوط منزوعة الفل والرصاص ، منينا نفسينا بخلوة لا تحاصرها العيون ، يكفى أن ينظر أحدنا إلى الآخر فيفهم ما يريد ، ارتكزنا بأكفنا على الحافة وصعدنا ، وإذ نثب إلى قاعها فاجأتنا الوجوه المصوبة إلينا ، وجوه تسلط علينا عيونا ذاهلة ، رجل وامرأة وأولاد صغار ما بين اليقظة والنوم ، تحوطهم أسمال وكيزان وبراد شاى . لكأنها أسرة كاملة . مد الرجل يده بكوز وبش. بش ومط وجهاً ضامراً فانكشفت

أسنان شوهاء متفرقة. قفزاً عدنا إلى السطح ومنه إلى الشط فى ظل المركب المقلوبة .

جلسنا ناحية الرمل الجاف هنا . نتماس قليلاً ثم نتحوط من الفضوليين فننفصل . نتشاغل بحفر أخاديد فيه فتذرو الريح طبقة ناعمة منه وترفعها سنتيمترات قليلة . تبدو كما لو أنها غمامة شديدة الانخفاض تُصيب الرؤية ولا تُخفيها . أسفل منها نلمح خنفسات صغيرة مبقعة بالأصفر ، وإلى جوارها تطير سرطانات إلى أخرام اكتشفنا أنها تحيط بنا. تترك نغبشات خفيفة لا تلبث الرمال أن تطمسها .

فى وقت واحد نظر كل منا إلى الآخر . تكفى نظرة واحدة ليفهم كل منا مراد الآخر ، نظرة واحدة ثم انكفأنا على وجهينا ، من فورها أصبحت أذرعنا قراصات ، وأضيفتْ إلى أرجلنا أرجل أخرى إلى كل رجلين أربعة أرجل من كل جانب . تضاءلنا واكتسينا بعظم له لون الرمل . بعينين خرزيتين تفحص كل منا الآخر . غنى ، فقد كنتُ فرحاً. بالتأكيد هى الأخرى تشعر بمااشعر ، فها نحن قد تحولنا إلى سرطانين أملحين .

بسرعة جرينا إلى أحد الأخرام.تمنينا أن يكون خالياً لم يكن مجرد خرم ،لكنه يفضى إلى ممر ينحدر فى الأرض الرطبة ثم يصعد إلى خرم آخر. المدهش أنه كان بالفعل خالياً.تقاربنا وتلاصقنا وبدأت فى مبادلتها عواطفى،شعرت بنخسة فى ظهرى فتوقفت. نظرت ، فرأيت ماء يندلق وسيخاً يندفع صوبنا .مذعورين انفصلنا وهرولنا من خرم الهروب ورأيناهم.صبية يحملون دلاء ويرفعون أسياخاً تخترق أعداداً كثيرة من السراطين .

جرينا يملؤنا الرعب ، ولما كانوا قد حالوا بيننا وبين البحر فقد صعدنا إلى الكورنيش من هنا ، هذا المنحدر صعدناه وهم خلفنا يهرولون ويلوحون بأسياخهم . من حديد السور انزلقنا ، هنا .. ومن هنا حاولنا النزول وعبور الأسفلت، فزعقت عجلات العربات ونطرتنا إلى حيث كنا . لدهشتنا استرددنا هيئتينا وعدنا كما كنا .

سألنا الأولاد عن سرطانين أملحين صعدا لتوهما . لم نُجب . كنا فزعين ، فجالوا بأعينهم يبحثون عن أى أثر يدل على موتنا فعصاً ، بعدها وقفوا على رأس بالوعة المطر. قالوا ربما نزلا إلى هذه البالوعة ، ثم انصرفوا وتركونا مستمرين فوقها . تبادلنا النظر وبدون أن نتكلم فهم كل منا ما يدور فى رأس الآخر .

شريط طويلٌ من القواقع والأصداف يفصل بين الرمال وموج البحر ، شريط متعرج كالزجزاج ، يتراكم فى تلاّت تعلو فتحجب ما وراءها ، وتنبسط فتكشف ما أمامها ، قواقع حية لهاً زوائد تخرجها وتديرها ثم تسحبها فتتقلقل بما فى داخلها . مدورة ومفلطحة تتدحرج باتجاه الرمال السوداء المذهبة بنترات جد دقيقة تلتمع بضوء الشمس ، ولا تكاد - إن أردت- تُمسك بها، تتلقى المويجات الواهنة فتدفن نفسها ، بعضها أو كلها، فى الرخاوة الندية ، وأخرى ميتة لتوها مفتوحة المصاريع ، لحومها حمراء مدممة ،لكأنها عيون فُقئت أظلاف طيور جوارح ، جافة هى اللحوم البنية المقّددة فى قيعان المحارات الناشفة ، يختلط فيها الأسود والأصفر وبياض الملح ، ملح البحر إذ يتبخر ماؤه فَيُخَلَّف تلك الحواف البيضاء الهشة الفواحة بروائح اليود والزفارة ، على طول الشريط الطويل يتداخل الرهيف المتكسر والسميك الصلب، المدور والمفلطح وماله شكل الظفر والقرطاس..أية موقعة خلقت هذا المشهد المهيب ؟.. أية مصادفة تلك التى داخلت وفصلت ورمت البعض منها فوق البعض ؟

ثمة أقدام مشتْ فوقها ،آثارها تدل عليها، هاهى آثار النعال والكعوب، يا إلهى ..هذا لسان ينبثق بين نعل وكعب، قوقعة غرسها الثقل الذى مَرَّ ومضى.هاهى حَدْبتُها تظهر، تتأرجح وتعلو،خوذة تحتها رأس حى.رأس هو الوحيد المتحرك وسط الركام المدفون تحت ضغطة آدمية واحدة.

لا ، ليست خوذة ، بل هى شئ آخر . شئ جهنمى ينبثق من بين طيات الأرض مقاوماً كل الأنواء ، وساخراً من غرورذلك الذى ظن أنه قتل ومشى ، لأتراجع ، من الأفضل أن أتراجع . الجهنميون لا يبدون مُبْتلين هكذا ، عديمى الحيلة هكذا . وإن كانت ، فيالها من جهنمية جميلة .. بريئة .. لا حول لهاولا قوة .

ثَلَمَةٌ .. ثَلَمَةٌ فى أحد الجانبين تُفسد جمالها . ليست ثلمة ، بل شرخٌ دارته الثنيات التى حَوَّرها مَدُّ البحر وجَزْرُه .. التيارات التحتية .. تلافيف الطحالب ، وحيل التخفى وهواجس الافتراس .. تترنح به وسط الهشيم المحيط. لكأنه هو الذى يحركها ويضنيها ، انحنى فألتقطها ، أضعها فوق راحتى . مهيضة تظلع فى حركتها ، أُقَعِّرُ كفى حتى لا تسقط ، لا يمكن أن تكون جهنمية المنبت ، لا أرضى أن تُصبحى جهنمية الموئل . أيتها الرقيقة المجترحة تماسكى .

لسانها طريٌ . أبيض شاحب. تلحس به بشرة الكف. ماذا تفعلين ؟ .. أى تحتاجين ؟ .. إن أشفقتُ عليك فماذا عن كل الركام الذى ينتظمه هذا الشريط الطويل ؟

لكأنك تتألمين .. هذا مؤكد . لعلك عطشى أو خائفة . أى شئ يمكنه أن يهدئ من روعك ؟ .. لو ربَّتُ عليك فإن خوفك سيزداد ، لو قَبَّلتك فلن تفيدك قبلاتى ، وإن خبأتك فى جيبى أو حتى فى صدرى فستختنقين.

البحر .. كيف فاتتنى ؟ .. جريتُ إلى حيث يتكسر الموج ضعيفاً واهنا. وضعتها أمامه . واحدة مثلك أخرجت إلهة عبدها أناس كثيرون ، ودارتْ بسببها حروب أفنتْ أناسا كثيرين ، فانتقضى وأخرجى ما تجودين

به . لا أريد آلهة أو لآلىء ، فالعبدة والكنّازون يأخذون بخناق الكون ، ويتهافتون على جمع مجرَّاته ، ينثرونها حول مذابحهم ، أو يضعونها داخل خزائنهم . أريدك كما أنت ، كما كنت ، كما ينبغى أن تكونى، فجودى علىّ بمسرة إبقائك حية ، وانتبهى ، فهاهى الأمواج الرخية تأتيك حانية شفوفة، هاهى ذى تنشر نفثات الحياة فى الأرجاء ، فهنيئا لك . اندفسى فى الرمل وأخرجى لسانك .

لكن الأمواج لطمتها فتدحرجت . علاها الرملُ الأسودُ والنترات ، أى مهانة يا قوقعتى تنالين ؟..من الشرخ رأيتُ جانباً من جوفها، أحمر وردى ، خسارة أن تموت وتتقدد ، إذن فأنا شغوف بها . هكذا بانت لى الحقيقة. هكذا حرت . ماذا أفعل ؟ .. ابتعدتُ بها عن رغرغات الموج وزبدة المعكر، فى التربة المبلولة حفرت حفرة صغيرة . ملهوفا عدتُ إلى البحر ، بكفى الفارغة اغترفت الماء وصببته فيما احتفرت، قَدْرُ بسيط يعينها على التصرف،وضعتها فيها وانتظرت فرأيتها تتحرك وتغوص. فرحت وقلتُ ها أنذا قد فعلتُ شيئاً مفيداً .

تأملت حدبتها إذ تهبط، والرمل المؤتلق بالنترات إذ يعلوها وتنهدت ، فتحتُ ذراعى وصدرى للشمس وللريح ، وابتسمتُ للأفق الفسيح ، غير أن طائراً بحرياً انقض والتقطها وطار . نظرت إليها بين منقاره وزفرتُ : لماذا من بين قواقع الشريط الطويل لم يختر إلا هذه القوقعة .. يا ربى؟

لم يحدث تراشق بالنيران أودك بالمدافع ، ولم تُحلقّ الطائرات فوق المدينة . لم يحدث شئ من هذا على الإطلاق . كل ما هنالك أن عساكر وحدة المدفعية الصاروخية دخلوا إلى قلب الشارع بعدما كانوا يتمركزون عند طرفه ، قال قائدهم تحركوا فتحركوا . لا ذنب لهم فى أى شئ ، بالطبع اهتزت العمارات وحُرث الأسفلت وتهشمتْ حواف الأرصفة، وهذه أمور عادية تشهدها المدينة كل يوم تقريباً.غير العادى أنهم لم يجدوا مكاناً يصلح لتمركزهم الجديد غير المربع الموجود به بيت أم عبده.

آه .. أم عبده التى حماها الله من كيد الأعادى وقلب قنابلهم فى السما وأعادها لتفجر طائراتهم لمَّا كادت تهبط فوق بيتها . بيتها هذا الذى تمركزوا حوله. أم عبده التى أكلت " قلب ديب " ونطتّ فوق اليهودى " أبو براشوت" وقضمتْ زوره . ما ذنب العساكر المساكين إذا كان القائد لا يعرف كرامات أم عبده ؟ .. لولا سلاطة لسانها لأطلق عليها الرجال الذين لم يهاجروا من المدينة لقب الشيخة . لكن لسانها الطويل حرمها من اللقب وعطاياه .

خرجتْ إليهم فرأوها بصدرها المدفوع للأمام وعجيزتها التى لا مثيل لها . من خروم قرطتها رأوا ثعابين شعرها إذ تطل ، وتحت أنفها رأوا شارباً فاستهولوا ما رأوه ، وأيقنوا أن خطأ تكتيكيا رهيباً أوقعهم فيه جهل القائد.

" كل المواسير والجنازير والكاوتشات دى حوالين بيتى .. !!"

لم تكتف بالبرطمة فأتبعتها بنظرة كتلك التى أحرقتْ بها الصاروخ القادم من " البر التانى " . تكوم العساكر واحتمى بعضهم بالبعض وهم الأشاوس أولو العزم . الأسلحة فى أيديهم والخوذات وأوراق الشجر وشباك التمويه فوق رؤسهم . هذا كله صحيح ، لكن ماذا عساهم أن يفعلوا مع واحدة مثل أم عبده . أم عبده التى وقفت على الشط ذات مرة وعطست فأغرقت نقطة العدو الحصينة بالماء والرمل ، وما يزال الرواة يحكون كيف أن بولدوزرات الأعادى حاولتْ انقاذ المدفونين بداخلها دون جدوى .

بعد حركة خطافية اكتشفوا أنها تمسك بالمقشة.ليس هذا فقط، لكنها - ويا للمفاجأة - تقف أمامهم فى وضع الهجوم .

"الهجوم علينا يا أم عبده ؟!..إحنا رجالتك وعساكرك يا أم عبده".

مترددة أرجعت النفخة التى كانت تنوى إطلاقها باتجاههم. ما تسرب منها لم يُطير إلا شباك التمويه وأوراق الشجر فقط ، بل أدار بطاريات الصورايخ - على ثقلها - حول محاورها ، لم تمهلهم فرشتهم بزخات من شتائمها .من العساكر من تمترس خلف العربات ومنهم من جفل . أما المساكين الذين وقفوا أمامها فقد ضربتهم ، ضربتهم بالفعل ، بعصا المقشة وقشها ، الخوذات رنَّتْ والفولاذ قعقع ، ضربتهم وهى تزعق :

" ابعد يا ابن القحبة أنت وهو .. حاربوا بعيد عن بيتى " .

بطيئاً بطيئا فهم العساكرأنها لم تضربهم وتشتمهم بسبب الرصيف الذى تهشم ، ولا بسبب غطاء البالوعة الذى هرسته الجنازير، ولا حتى

باب البيت الذى انبعج ، لكنها تريدهم فقط أن يبتعدوا عن تلك المساحة الفاصلة بين مجنزريتن تواجهان المكان الذى خرجت منه .

لمّا فهموا ابتعدوا ، ويالها من مفاجاة ، ليتهم منذ البداية فهموا وابتعدوا، ذلك أنها رَمَتْ المقشة من نفسها رمتْ المقشة،ليس هذا فقط، لكنها أتت بما لا يمكن تصديقه ، رَمَتْ صدرها إلى الإمام أكثر وبركتْ على الأرض ، على الأسفلت وضعتْ كفيها وركبتها فتدلى ثدياها وارتفعت عجيزتها ، " بتعملى إيه يا أم عبده " ؟ " . لكنها انشغلت عنهم بالنظر أسفل الجنازير والعجلات ، وبأخف صوت راحتْ تردد : " بيتك بيتك بيتك.. عسل عسل عسل " ، وإذا بسرب من الكتاكيت الصغيرة يتدحرج كتلاً صفرا زغبية من بين تعارج الكاوتش ولفّات الجنازير ويتجه إليها مصوصوا مهللاً .

فتيات المكاتب يُشعلن رما دالانهيار

١- زميلات ثلاث
٢- مايســـــة
٣- حســـــد
٤- فكـــــرة
٥- الأتـــوبيس
٦- المديـــرة

زميـــــلات ثـــلاث

الحاج حسنى رأسه صلعاء ، وعبد الحميد أفندى أشيب وأثرم ، أما الأستاذ زقزوق فإنه يملك عينين مثقلتين بالزجاج المقعر وتجارب السنين ، وفى المكتب شبان وشابات . الشبان مشغولون بتصفح الجرائد والتهام الساندوتشات ، والحديث عن فواجع الدنيا. والشابات أيضا .. وإن أزدن حكايات المنازل وأخبار الموضة ومسلسلات التليفزيون ونهش سيرة هذه أو تلك ، إلا سامية فإنها مشغولة بالكبار الثلاثة.

هذا ما أكده أصحاب النظرات الخبيثة ، فهى الوحيدة التى تحرص على استشارتهم فى كل كبيرة وصغيرة ، وهى الوحيدة أيضا التى تستغنى عن خدمات أم السيد وتأخذ الأوراق بنفسها وتأتيهم ، تعرضها عليهم حيث يجلسون فى الصدارة تحت صورة رئيس الدولة ونتيجة الحائط ولوحة التعليمات ، تبسطها على مكاتبهم وتتعمد اعطاءهم قلمها . دائما تتعمد مَدَّ قلمها لتتمكن من مس أصابعهم ، هذه الأصابع الحكيمة ، الآمرة ، القادرة على منح أذونات الانصراف المبكر ومنح المكافآت والأجور الإضافية . أى والله، تمس أصابعهم. ببساطة.. هكذا .. هكذا ..حتى لكأنه أمر عادى .

وهم مستمرؤون اللعبة ، سعداء دون أن يظهر عليهم. لاملامحهم ولا حركاتهم ، خبراء .. محنكون ، فقط ، يتعمدون الإبطاء فى أخذ القلم ، ثم

يسرعون بالتوقيع ، وبعدها يتباطأون فى إعادته ، يتباطأون بالقدر الذى يتيح لهم دس أعينهم وتقليبها فى كنوز صدرها من خلال الزر المفتوح دوماً فى بلوزتها، كل منهم على حدة ، كل منهم بدوره ، دونما ظلم أواجحاف بحق الآخرين، حتى عينى الأستاذ زقزوق تعرفان كيف تروغان وتندسان فى الداخل الخفى وتخرجان فى التوقيت المتاح لهما تماماً .

تهامست البنات ، ماذا يعجبها فيهم ؟ الثلاثة دقة قديمة صحيح أنهم يأكلون معهم الساندوتشات ، ويقرأون مثلهم الجرائد . لكنهم ينكبون على أوراقهم فى صمت ، ويبتسمون للقادمين فى بلاهة ، ويحيطون أنفسهم بهالة من الكبرياء . يَدَّعون - بوقارهم الزائد عن الحد - أنهم يفهمون أشياء كثيرة، وأنهم يعرفون ما هو أكثر من بنود القوانين واللوائح ، غير أن من يراهم فى جلستهم التى لا تتغير ليظن أن النواميس التى تكبل الجميع ما خرجت إلا منهم ، لكأنهم عناكب ثلاثة تُفرز لعابها خيوطاً تحتويهم ، عناكب متفقة ، متسقة ، من نفس السلالة والعائلة ، فالأستاذ زقزوق لا يمهر ولا يضع ختم النسر إلا إذا وَقَّعَ عبد الحميد أفندى ، وعبد الحميد أفندى لا يُوقِّع إلا إذا سبقه الحاج حسنى ، والحاج حسنى رجل طيب ، لكنه حازم . جمع حزمه فى تكشيرة لا تزايله حتى إذا جاءته سامية . ومع هذافهو حريص على أن يتمتع بما تتيحه له، وهما أيضا .

أفاقتْ سُمية إلى أهمية ما تفعله سامية ، ففتحت زرين في البلوزة واستغنتْ هى الأخرى عن خدمات أم السيد ، لاحظ أصحاب العيون الخبيثة أنها أمهر من سامية فى دفع القلم ، حتى أن تماس الأصابع يطول لكأنه لن ينتهى ، صحيح أن ملامحهم صلبة كما هى تنضح بالحكمة

كالمعتاد ، لكنها تبدو أيضا - وهذه هى مهارة العيون الخبيثة - أكثر ارتياحاً ورضا وهى تغوص فيما وراء العروتين .

سامية رأتْ ما تفعله سُمية . فى الطُرقة عَنَّفَتْها ، فأفهمتها غريمتها أنه ليس هناك أحداً أحسن من أحد. فى أول رد فعل ارتدت سامية أضيق وأقصر فساتينها ، فارتدتْ سُمية الميكروجيب الذى انتهت موضته منذ صيفين. جاءتْ سامية بتاير مفتوح تكشف البلوزة من تحته عن جزء كبير من صدرها ، ففاجأتهم سمية بفستان سواريه مُعلق إلى كتفيها بشريطين رفيعين من الساتان . شفت بلوزة سامية حتى أظهرت السوتيان ، فجاءت سمية ببلوزة ، غير شفافة صحيح ، لكن ليس تحتها سوتيان .

قالتْ سامية لسُمية : ما تفعليته خطر عليك ، فردتْ سُمية : القحبة لما تبليك.. صفعتها فردتْ لها الصفعة. شدتْ سامية شعر سُمية، فأخرجت سُمية قلم الروج ولغمطت وجه سامية ، أمسكتْ سامية بزجاجة الحبر ودلقتها فى صدر سُمية ، هنا فقط تدخل الزملاء والزميلات ، قالوا لسمية : أكتبى مذكرة ، وقالوا لسامية اكتبى مذكرة ، لكن أيا منهما لم تكتب لم نجرؤ أن تكتب ، فأى شئ يمكن أن يُكتب ؟ .

وإذ يشغلهما ضجيج التصالح ، حملت سميرة أوراقها ونَحَّتْ أم السيد من طريقها ، ثم اتجهت إلى الثلاثة الجالسين بخبرتهم وحنكتهم ، أسفل صورة الرئيس ونتيجة الحائط ولوحة التعليمات ، ممسكة بالقلم ، وفاتحة لعدد غير معروف من أزرة بلوزتها .

مـــايســـــة

مايسة بنت عفريتـة . تضحك وتقهقه كلما أرادت. حيثمـا استبدتْ بها الرغبة تضـحك وتقهقة . تصبغ شعـرها وقتما تشاء وكيفـا تشاء . مرة كل شهـر وأحيانا مـرة كل أسبوعـين ، وإن قامتْ فى رأسهـا فكل يوم. واحدة منهن أقسمتْ أنها رأتْ شعرها بلونين مختلفين فى يوم واحد .

منهـا عـرفن أن بيـن البنى والبـيج ألوان لا أول لهـا ولا آخـر . وأن الكسـتنائى ليس مجـرد لون وحيـد ، إنما هو عـائلة من الدرجات اللونـية المتجـانسة ، وعرفن أيضاً أن هناك الأشـقر الماهق والأشقـر المعتم ، وأن الأسـود لا تكون له تلك اللمـعة الأخـاذة إلا إذا أضيف إليـه بعض الأزرق والأخضر .

كـمـا عـرفن منهـا متى يكون " المـاشـيت " مطلوباً ، ومتى يُكتـفى (بالآرت شـو) أو " البوسـتيج " . ومتى تـكون " الباروكـة " هى الشرط الوحيد لإبراز فتنة المرأة واعتدن أن تشرح لهن كيفية عمل حمامات الزيت ومكان وضع البلسم من جـذور الشعر ، وموعـد الغسـيل وكـيفية إمسـاك " السيشوار " لتجفيفـه ، والتسريحة التى تليق بكل وجه من وجوههن ، ومتى تُفضل قـصة " الكاريه" ، وكيف يُثبّت " البـوجودين" ، ولماذا تميل أحـيانا إلى قصة " الأسد " .

كُنَّ يضاحكنهـا ويقلن :" فاضيـة " ، وفى أعماقـهن كُنَّ يشفقن عليـها لطيبتها ، ويعتبن على العرسان الذين فقـدوا البصر والبصيرة . يتابعن تغيير المـانيكيـر فوق أظـافرها ويقلـن : " فنانة ". فالأحـمـر والذهبى والفـضى

والبرتقالي - حتى الأزرق والأخضر - يأخذ فوق أظافرها أشكالاً عجيبة ودقيقة ، ما بين مربعات ومثلثات ونقط وخطوط مستقيمة ومائلة . أشكال غريبة تتغير بتغير لون ونقشة البلوزة أو الجيبة.حتى الايشارب وتوكة الشعر، والحذاء، والشنطة والكرافات، لألوانها من أظافرها نصيب .

عندها من أصابع (الروج) وأقلام تحديد الشفاه و" الرميل " و" الماسكرا" وعلب " البنكيك" مالا حصر له .

" مايسة لا يُعلى عليها " .. هكذا كُنّ يسترعين انتباه زملائها . هؤلاء العميان الذين لا يهتمون بغير الكلمات المتقاطعة ، لا يذكرنها بغير الخير ، وإن ضحكن معها أو عليها فلتزجية الوقت فقط ، ضربتْ مكتبها ذات يوم وصاحت " سأصبغ شعرى بالبنفسجى " استهولن ما نطقت به، فهذا اللون لم يرينه إلا على شعور المانيكانات وبنات الكباريهات لكنها أكدت أنها قادرة على أن تفعلها ، أكثرمن هذا راهنتهن ، قلن : " ستخسرين .. لا أبوك ولا أخوتك سيسمحون "، إلا أنها، وبالجراتها، فعلتها . ضحكتْ كثيراً واشترت بالرهان أصباغاً مختلفة وزعتها عليهن . كل حسب لون بشرتها وألوان الفساتين والبلوزات التى ترتديها .

يوماً جاءتهن ببرج فوق شعرها ، تعلوه دائرة بها دبوس . قهقهتْ وقالتْ : " دش" فلطمنها بالملفات والسجلات ، ضاحكنها وجعلنها مادة لتندرهن ، وهى تشاركهن لطمة بلطمة ، ورمية برمية ، ونكتة بنكتة . غير أنها فاجأتهن يوماً بهيئة لم يعهدنها ،فلا شعر ولا صبغة ولا أبراج. نظرن إلى وجهها، ذلك الذى لم يعتد إلا الضحك، وقد أحاط به الحجاب، ونهضن إليها، إلا أنها ارتمت على مقعدها وانخرطت تبكى، وبدون أن تتكلم عرفن أنه قد جاءها عريس .

لم يَرْتَبْ أحد في أمرها حتى رأوا تورد وجهها والتماعة الفرح فى عينيها . تهامسوا وتساءلوا عما عساه يكون قد حدث لزميلتهم الأرملة صاحبة الطفل المشلول . قالتْ الزميلات : " فى الأمر رجل " ، وقال الزملاء:"سُمعة المكتب". نقلوا الأمر للمدير فأصدر تعليماته: "راقبوها " ، فراقبوها . رصدوا سكناتها وحركاتها داخل المكتب ، والطابق ، والمبنى ، إلا أنهم لم يقفوا على شئ قال المدير : " انظروا ماذا تفعل فى الخارج "، فتناوبوا المتابعة. حتى السعاة اشتركوا معهم. لاشئ . من المكتب إلى السوق ومنه إلى البيت . تهامستْ الزميلات : " ربما كان أحد جيرانها " ، فتحرى الزملاء عن السكان ، إلا أنهم لم يجدوا من يمكن أن تهفوا إليه نفس.قيل :

" صبى أو فتى يأتيها من خارج الحى " فقبعوا تحت الشرفة ، دخنوا السجائر واتخذوا سَمْتَ المخبرين وعادوا صفر الأيدى . قال المدير : " لم يعد بد .. اقتحموا الشقة ". فى زيارة غير مرتب لها طرق وفد منهم باب شقتها. فتحتْ لهم فرأوها ، متهللة ، محلولة الشعر ، ومتوهجة ، غير أن عيونهم الخبيرة لاحظت أنها تبدو محرجة . ليس لأنها حاولتْ أن تلملم شعرها كيفما اتفق ، ولا لأنها مالت إلى التحفظ معهم ، فهذه أمور جد عادية ، لكنها النظرات فى عينيها،وذلك الشعاع الذى لم تُفلح فى اخفائه . " إنها المباغتة " . هكذا قالتْ ". إذن فهو هنا " . هكذا خمنوا ، بعيونهم

جاسوا فيما وراء الأبواب، وبآذانهم أرهفوا لكل نأمة. فجأة أفزعتهم حركة من خلفهم، فالتفتوا بسرعة ،لئلا يهرب قبل أن يروه فتكذب وتدارى ، لكنه كان طفلها المشلول يمشى ويتحرك، فى نفس واحد هتفوا:"طاب ؟!". من نورها أخفته عنهم وعادتْ تواجههم مكبرة مهللة، فاردة أصابعها الخمس ، وعلى وجهها ارتسمت التكشيرة القديمة .

فكـــــــرة

انتهزت فـرصة خلو غرفة الأستـاذ من الزائرين وفاتحته فى أمر مـرتبها الذى لم تصرفه منذ عـملتْ معه . تعلوه صور الوجهاء الذين يـصافحونه . اسـتـمع وسكت بـامكانه أن يتكلم .. أن يحـرك يـديه ويشـيـر .. أن يفـرد كرمشات جبينه .. لكنه لم يفعل .. فـقط أمسك بالسيجار ومر بإصبع فوق شاربه الرفـيع ، أفاضت فى الكلام . لا تملك أن تفـعل غيـر هذا ، سوسن ولمياء لكل منهمـا مكافأة . الوحيـدة التى لا تصرف هى . لمـياء لم تكن تصرف ، من شهـرين حُلتْ مشكلتها ، حلها هذا الجالس بـسيجاره تحت زحـام المصـافـحين ، انطق ، قـل شيـئاً ، لـكنه تشـاغل بـحلقات الدخـان المصـّاعدة بينهـما ، وهى واقـفة مـا تزال ، نبتٌ بلهاء تنتظر العـطية ، دس السيجار فى الزاوية المعتاة من فمه ،هاهو ذا يعود إلى عادته ، أسنانه بيضاء كمـا هى دائما. مُطبقـة على السـيجـار تجز فيه " لن يـرد" لكنه حرك أسنانه ونطق .. أخيراً نطق :

" من منا أحق بأن يأخذ من الآخر اجراً ؟ "

غُصت ، قالتْ :

" لى معك عُمرٌ " .

رد:

" تتعلمين فيه وتتمرنين " .

أحستْ بيديها تتثلجان ، ودَّتْ لو ثارتْ لو صاحتْ، لو نزعتْ السيجار ودسته فى عينه. فكرتْ أن تهبط بالأيدى التى تصافحه فوق رأسه فتهشمها، لكنها لم تفعل ، بلعتْ ريقها وسكتتْ . بنأمة من إصبعه فهمتْ أنه يطلب منها الانصراف فشكرته . نعم شكرته ، أقرَّتْ وجهة نظره وشكرته .. هكذا ببساطة ، ومتعثرة مضطربة غادرتْ الغرفة. غير أنها فكرتْ وهى تغلق الباب " فى المرة القادمة سأفعل مثلما فعلتْ لمياء . سأعرى له ساقى وأُدنى وجهى من وجهه وانتهد " .

الأتـــوبيس

مَرَّالأتوبيس من أمامهـا فابتسمتْ له وتركته يمر. مَرَّ التـاكسى فأشارتْ إليـه . فى أول الشارع التـجارى نزلت . مـعهـا أول مرتب . مـعهـا فرحـة الانعتاق . ستترك للبيت النصف ولها النصف . كل ما ترغب فيه ستشتريه ، لن يوصـيهـا أبوها بالتريث .لن تفـرض عليهـا أمهـا مالا تريـد. أمام أول فـاترينة تمـهلت . قـرأت بطاقـات الأسعـار ثم تحـركتْ . عند الـفـاترينة المجاورة توقفتْ . استعرضت ما فى المقدمة وما فى العمق ثم انتقلتْ إلى الفاترينة التاليـة، فالتى تليها، والتى تليها. كل فتارين الـشارع مَرَّتْ عليها . وجههـا انطبع على زجاج كثيـر ، واندفـس بين مانيكانات كثيـرة . انكماشـة بسيطة ربطتْ بين حاجبيها ، وزمة غير مقصودة جمعتْ شفتيها، فيما ظلت يدها قابضـة بحزم على حقـيبة يدها . فى آخـر الشارع لاح الأتوبيس . من فورها خلعتْ حذاءها وهرولتْ إليه.

المـــديرة

لم تكد الساعة تُنهى دقاتها التسع حتى دخلتْ. جاءتْ فى موعدها الثابت . وقفتْ للحظة عند بداية الممر، ثم انطلقتْ بخطى ثابتة محاطة بتثار التحيات وهرولات الموظفات المسرعات إلى مكاتبهن وأوراقهن . فُتح الباب ودخلتْ إلى مكتبها ،أصلحتْ من تايرها واستمعت للداخلين والداخلات . تابعت أرقام نيويورك وطوكيو ولندن وباريس ، وتصفحتْ قوائم أسعار الين والمارك والدولار الأمريكى . استعرضت عدداً من الخرائط والاحصائيات ، وأصدرت أوامرها بالبيع وبالشراء ، ثم أملتْ عدداً من المكاتبات ومهرت بضعة أوراق. لما انتهتْ الحركة ، وهدأ كل شئ من حولها، ضغطتْ الجرس واستدعت الرجل الوحيد الذى يعمل فى المؤسسة فجاء ووقف ممتثلاً . وكعادتها معه دعته للاقتراب وأضاءت اللمبة الحمراء وفتحتْ سترة التايير .

صائدات البروق بهن رهق من مذلة

---

١ – القرمـــة	٤ – مخالسة
٢ – تنفـــيض	٥ – افتراس
٣ – غنـــــاء	٦ – فى زمرتهم

القـــرمـــــة

أمام المحل وقفتْ سعدية . فى مواجـهة القرمة بالضبط. بيدها المنديل المعقود ، ومن حولها اللحوم المعلقة . الشاش يغطى أغلبها . شاش مُنَدًّى بالأحمر. القرمة أطول منها وأغلظ. أسفل منها نام الكلب الذى لا تخشاه ، وخلفـها يقف المـعلم خـفاجـة عمـلاقاً يمـسك بالسكين والمـسن تعرفـه ويعرفها . تأتيه كل يومين أو ثلاثة ، بنفس المنديل المعقود ونفس المطلب . تناولت المرأة التى أمامـها لفافتهـا فمدتْ سعدية يدها . مدتهـا بأقصى ما تستطيع . لأعلى فـوق . جاوزتْ بها سطح القرمـة . مدَّ يده فقالـت : فخذة لستى ...

قـبل أن يفك المنديل عادت ومـدتْ يدها بأقـصى ما تسـتطيع .لأعلى. فـوق. جاوزتْ بهـا سطح القرمـة ويد المعـلم خفـاجة ، بـسط المـعلم يده فسـقطت إلى جوار ربطة المنديل عُـملات معـدنية صـغيرة . عـملات من نحاس والمونيوم . قبل أن يعاود النظر إليها ، بادرته :

- .. وعضمة لىّ .

تنفيـــض

أمام المرآة تقف . تتطلع لشعرها النافر من ثقوب المنديل، ولجلبابها إذ تتماوج زهراته بتماوج صدرها،أسفل منها السجاد والحشايا ، وفى يدها المنفضة . الغبار معجون بالعرق داخل ثنيات رقبتها ، وثمة قطرات تبرق فوق الجزء الظاهر من ثدييها . ترمى المضرب وتمسح على رقبتها وصدرها . تحس بالدفء يسرى فى كفيها فتعاود التطلع إلى المرآة ، تفرد ذراعيها وتنزع المنديل ، تهز شعرها فينتشر محتوياً وجهها وأذنيها ويمتد بطوله حتى منتصف ظهرها. تنثنى وتمسك بطرف الجلباب ، ترفعه وتلقى به فى الهواء . بحركتين تتخلص من الأصغرين . حرة خفيفة تقف . مبهورة الأنفاس ، موردة ، تتقافز فوق السجاد والحشايا. تتمرغ فى الألوان والنقوش الشيرازية . تحتضن الهواء وتنهض. تنثر قبلاتها على سطح المرآة ، تتأود وتنثر شعرها وترقص ، وحين يصطفق الباب الخارجى ، وتسمع السؤال الآمر .." خلصت تنفيض يا بنت؟" تضرب صدرها العارى بكفيها وتنحنى على أشيائها ، ثم تنزوى وراء الباب وتندس فيها قطعة فقطعة .

تركوها وخرجوا فهبط عليها الصمت بارداً وثقيلاً . كل شئ كانت قد قامت به ، إلا أوانى المطبخ . الصابونة أمامها واللوفة وسلك الألمونيوم والحوض المزدحم ، تعليمات الهانم " المطبخ لازم يكون على سنجة عشرة " علقت المريلة فى رقبتها وشمرت عن أكمامها ثم فتحت الصنبور وبدأت. أغزتها قعقعات الأكواب والأطباق بالغناء فابتلعت ريقها وتنحنحت . منحشرجاً نحيلاً خرج صوتها غمغمة ، فدندنة، ثم استحال إلى أنغام رائقة تبث الفراغ من حولها ما تحب وتهوى . طربتْ فأزادت وانكفأت على أوعيتها تقرعها وتغنى. من عمق حجابها الحاجز تضخ الهواء وتدفعه إلى أحبالها الصوتية ليخرج نغماً قوياً حياً ، يُرعش خيط الماء ، ويُطيِّر فقاعات الصابون . الرشاقة ارتجت ،والملاعق صلصلتْ، تمادتْ فاهتزت اللمبة، ورنَّ كريستال النجفة فى الأنترية، ومالت صورة سيدها البيه . حتى الأزهار البلاستيكية فى الفازات تمايلت وارتعشت جأرتْ ففتح الجيران نوافذهم ، طرقوا عليها الباب، وهى سادرة فى غنائها، فرحة بالفقاعات إذ تتطاير وتعلق بالقيشانى وزوايا الثلاجة والدوليب .استمروا فى الطرق فلم تسمع. ذهب بعضهم يستدعى البوليس، وظل الآخرون يطرقون الباب، واستمرت هى تغنى وتغنى وتغنى.

مخالسة

تقبع ما تزال فوق الفراش المفرود فى ذلك الركن من المطبخ ، لحظات ويأتيها فى خفة النمر . يدفع الباب الموارب ويدخل . بنفسه قام بتشحيم المفصلات حتى لا تزيق .و بنفسه ثبّتَ اللمبة السهارى حتى يرى لحمها حين يلتصق به . ، سيغلق الباب حتى لا يأتيهما شخير زوجته . لن تقول له هذه المرة " لا .. لا يا سيدى ". ستبادره بأنها ابتلعت آخر أقراص الشريط فى المرة السابقة . سيقفز كقط ليعود كنمر ومعه قرص من شريط زوجته . عندئذ ستهمس له بأن أمها أخذت الذهب الذى اشتراه لها ، وأن الكلية تطلب مصاريف أخيها، وأنها تشتهى سوتيان الست هانم الجديد فإذا ما وعدها،وحتماً سيعدها ستتركه يفعل ما يشاء. وعندما تتملكه النشوة، وتأخذ منه كل مأخذ ، ستقلبه على الفراش وتعتليه ، وتزجره بخفوت " حا" .. " شى" . لحظتها سيضحك، لكن بدون صوت مسموع .

افتـــــراس

.. شد شعرها فضحكتْ . قهقهتْ وضمته إلى صدرها ، عضها فرمته على السرير وارتمتْ فوقه. قَبَّلته قبل أن ينفلت ، لكنه انفلت وتدحرج وجرى . لحقتْ به فأمسك بستارة الباب ولفها بها . تأرجحتْ داخل القماش المطبوع . نمرة داخل فخ . اختطف مقلاة وطفق يضربها فلا تطول غير ركبتها ، فى البداية ضحكتْ نفس الضحكة المتبوعة بقهقهة ، إلا أن الضربات أوجعتها فصرختْ . صرختْ وسقطت هى والستارة على الأرض . من رقدتها مَدَّتْ ذراعاً وثقبتها . بأصابعها قبضتْ على ياقة جلبابه . حاول أن يجرى فتمزق الجلباب ، انشق حتى الآخر وتعرى . تخلصتْ من قماش الستارة وجرتْ خلفه . رماها بفازة أصابتْ رأسها . مَدَّتْ إحدى ساقيها وأسقطته على الأرض . عارياً نهض ، ركلها فى وجهها فأمسكت بالكم جلبته فارتطم رأسه ببطنها وارتمى ذراعاه فوق فخديها قبضتْ على ظهره بذراعيها. كلتا ذراعيها والصقته أكثر ببطنها . رائحة العرق فى انفه وزهور الفستان تحت عينيه، وهى تضغط وتحاول أن تديره ليصبح الصدر فوق الصدر والبطن فوق البطن ، لكنه أنشب أظافره فيما طاله من ساقيها ، وجز بأسنانه زهور الفستان وما تحتها. تأوهتْ فدفع ذقنها بقدميه وسحب نفسه لتعلق قدم بفتحة الصدر فتنشق زهور الفستان وينطلق نهداها نافران معربدان .جن جنونها فأمسكتْ بملاءة ورمتها فوقه . انبثق منها فأقبلتْ عليه ،وفى الوضع الذى تريده جعلته.دفع صدرها عنه ،

لكنها كانت قد طوقته وبنهديها هصرته . صرخ وأرجح ذراعيه وساقيه فى الهواء . حاول أن ينفتل من أعلى ومن أسفل ، لكنه لم يفلح . فلما همد واستكان لها وجردته من كل ما عليه فُتح الباب وصرختْ الأم :

- إخص عليك دادة !!

فى زمـرتـــهم

كل شئ كما ينبغى. شعرى ملفوف فى اتجـاه واحد، شفتاى قرمزتيان، طابع الحُسن فى مكانه ، والبارفان خلف شحمتى الأذنين وتحت الإبطين . لحظات والتقى بهم . نظرات كالبرق ستومض باتجاهى . هاهم تعلوهم الثريات وتحيط بهم تماثيل العاج ، وأعمـدة المرمر . يتقدمنى الخادم إليهم فتتبادل الإيماءات والابتسامات الباردة. يفسحون لى فأدخل فى زمرتهم .

لا أقلُّ عن لابسات الخواتم والأساور فوق القفازات تألقاً ونضارة . الماسات واللآلئ تستريح على النحور وتتدلى من الآذان ، تُطل من تيجان الرؤوس وتتحدانى . لن يمكنهم كشف زيف ما أتحلى به . يعبث الرجال ببيوناتهم ويدفسون أصابعهم فى جيوب صديرياتهم ويدورن حولى. اتخلى عن خوفى وأنقل خطوى بينهم ، أدعى المرح فأضحك باحتشام. مثلهن أظهر الضجر وأهش مالا أراه بمروحتى . تصرخ الموسيقى فيتخاصرون . أهزُّ إصبعاً لرجل معتذرة وأشير بإيماءة لآخر أن لا بأس ، فإذا بى أدور وأروح وأغدو فى خطى متعرجة بين أذرع كثيرة تتبادلنى .

أجلس على واحدة من الأرائك الموشاة بالذهب ، يحيطون بى . متألقون وضَّاءون ، يكثرون من الضحك والابتسام. يمر السقاة فيستوقفونهم، ويلتقطون برشاقة ما يتخيرونه. أناملهم وهم يقضمون أو يرتشفون . متأنقون ومتحفظون إلى أقصى حد. لا أقيم لأى منهم وزنا ،

فـأنا انتظر الرجل الذى لا أعـرف اسـمـه أو شكله ، لكننـى هنا من أجله ، سأراه ويرانى ولن أفلته منى . هوهنا ، بالحتم سيكون هنا .

تتحرش بى إحداهن . وجهها شمعى ومروحتها فضية ." الهانم أول مرة تشرفنا". راؤها غين .لن أقل عنها. سأظهر لها أن الغين عند أفخم". أوربا.. وأمريكا" " آه.. أوربا؟ .. بارى ؟ ". تـتباهى بخنفـتها. لعلـها تمتـحن مدى ثباتى فى نطق الراء غيناً ." وى .. وى .. روما.. بارى .. مدريد .. برسلونة .. وبرلين "." الصـيف فـى الريفـيـيرا يجنن " . " الريفـيـيرا ؟ .. أووه .. الريفيـيرا .. الريفييرا ". كـوكبه من الرجال تحـيط بى ، تسبقهـم كؤوسهم وعُلب سـجائرهم . أهز مـروحـتى وانصرف عنهم فـيـقبلون علىّ ، مـا أن ينهض المايسـترو، ويعيد تحريك عصاه ، وتبدأ النغمات الوترية تترقرق فى الهول حـتى يبزغ كما البـدر ، من وراء الأجساد التى تنهض لتـوها يبزغ .. تُغشينى الهالة التى تحيط به. تغشى الآخرين أيضاً ، كأنى به كائن، نورانى . هو كما وصفوه لى بالتمـام . تكفينى من وصفهم الهالة ، تغرقنى الآن هذه الهالة . ينزاحون عن طريقه فأواجهـه . لا .. لن أفعل مثلهم ، فما جئت إلا لألقاه .

راعشـة أُثبّتُ عـينىّ على وجهـه . كل هذا البهـاء قيـد خطوات منى ، والموسيـقى تتدفق من حولى قطرات من ضوء ومـويجات من ألق ؟ .. لو ضمنى.. لو تعطف وطوق خاصرتى . تمـتد يدٌ تطلب منى افساح الطريق ، لكنى أقف .. أعـاند وأقف ..فما تجـشمتُ مـا تجشمتُ إلا لألـقاه . على شفتى ارسم الابتسامة التى طالمـا تدربتُ عليها .. أحاول فلا أستطيع .. لا أقدر .. أشعر بوجهى يلتـهب . كل ما يسربلنى زيف . كل ما أفعله باطل .

معه ينبغى ألا أكون سواى . لو أمر لنضوتُ عنى كل ما ليس لى .. ما استعرته وما قلدته .. ليرانى كما أنا . كما كنت وكما ينبغى أن أكون ..إن أشار أكسر الراء والغين، وألقى بالمروحة والحذاء، أمسحُ الماكياج وطابع الحسن ، وأخلع البروش والقلادة الزائفين .

هو ولا شئ سواه ما أبغى . كل ما فعلته وتدربتُ عليه لم يكن سوى حيل كى أروغ من بوابائهم لألقاه ، هو الذى لم أعرف اسمه أو شكله ، لم أعرف غيرهالته ، وهاهو ذا أمامى . قيد خطوات منى . والأوركسترا تغمرنا بفيوضات من النغم والبهجة .

أيهذا المتعالى فوق الجميع .. يا من يدور كل هؤلاء فى فلكه .. خذ بيدى واحتوينى .اجعلنى من حورياتك ، فلعلى أنعم ببعض من عطاياك.

كل الطنافس تذوب . كل الوجوه تتلاشى . البيونات والياقات المنشاة وفساتين السهرة لا وجود لها . لا سقاة ولا أرائك . لا ثريات الوجود كله أنا وأنت ، والهالة المنبعثة منك تدنو . لعلها تصل بينى وبينك . لعلك ترتضى أن أصبح مجرد نقطة تدور فى محيطك ، فاسمح لى بأن أفتح ذراعى وأدعوك لمخاصرتى ولو لمرة . لنرقص سوياً وسط كل هذا الألق . إن تعطفت علىّ فاعفنى من الانحناءة التى تفعلها هانيك النسوة ، أخشى أن أدير عينَّى فتضيع منى ولا أراك. اعذرنى ، فذاتى أشعر بها تتكسر وتذوب شعاعاً فى ومض الضوء الذى يشع منك ويحتوينى .

ها .. ها أنتذا تمد يديك . خذُ بيدى وراقصنى . لا .. هاك خاصرتى .. هاك أنا .. ضم .. ضم .. إه !! .. ماذا يعجبك فى البروش ؟ .. لا تنزع القلادة .. دع مروحتى .. أنت تهينتى . انظر إليهم . إنهم يضحكون .

توقف . أنت تغريهم بى ، ابتعدوا عنى . من يمد يده سأقضمها . من تريد أن تُصبح عوراء فلتقف أمامى .. لا تحيطوا بى هكذا. فستانى الغالى اتركوه . دعوا شعرى . آه .. ماكياجى .. أيها السفلة الأقذار . ماذا فعلتُ لكم ؟ .. اتركونى ولن أعود .. لكنهم يتكاثفون ويسدون المخارج .. كل المخارج .. وهاأنذا أستميتُ فى ابعادهم عنى .. وهو يقف هناك ، تحت الثريا ، يضم ثلة من الفتيات عاريات الأكتاف ويضحك مقهقهاً .

كريات من غيم فوق أثداء الغوانى

١- سعـــاد
٢- وجههـــا
٣- يقـــين
٤- دون جدوى
٥- زهـــرة
٦- ضمـــير
٧- الفتاة فى المنشفة الزرقاء
٨- برنسيـــة
٩- مسكـــنة
١٠- عســـل

كل ما فعلنه أنهن صمتن ريثما يمر . ومر. فوق مستطيلات البازلت مشى مستوحداً بنفسه ، وعينه على الأبواب التى يجلسن على عتباتها بعد أن تجاوزهن لم يسلم نفسه لاغناة الزقاق ، وإنما عرج إلى حيث تكومتْ براميل الزبالة ووقف خلفها . من مكانه مسح عتبات الأبواب المفتحة . أيها باب سعاد ؟ .. فكل العتبات متشابهة ، وهن قاعدات يتشمسن على الاعتاب بجلابيب مقورة تكشف منابت الأثداء الملعوب فيها بأفواه وأيدى الصغار والكبار ، ينبشن الأرز المفروش فى الأطباق المسطحة ، ويُزحن قشور الباذنجان والبطاطس إلى ما بعد أقدامهن .

الرجل المفلوج وصف له باب سعاد ، لكنه نسى ، بل لم تسمح له حماسته بالتقاط ما نطق به الرجل . هاهى الأبواب كلها تحت بصره . وهاهى أصواتهن ممتدة أمامه بحذاء الحبال المدلى منها الغسيل ، قمصان وجلابيب وأقمطة ويشاكير.أيهن سعاد؟.. أى عتمة تخفيها بداخلها؟.. حَذَّرَه المفلوج من سؤالهن ، ونبه عليه ألا يدخل من أى باب غير بابها ، لكن أين هو هذا الباب ؟

جميعهن ممتلئات مدكوكات ، فلعل سعاد أنحفهن ، لكن المفلوج لم يصفها له ، وما من واحدة فيهن انحف أو أبدن . هو لا يحب النحيفات أو مفرطات البدانة ، فكر إن نهضت إحداهن فجسمها فارع، فيه من اللدونة ما

يريح ومن الصلابة ما يخيف،وأنا أحبُ هذا الصنف . هجس : لعل المفلوج ضحك علىَّ . أخذ المعلوم وباع لى السراب ، وإلا فلماذا لم يأتْ معى ؟ .. غير أنه راجع نفسه . أنا الذى طلبتُ درء الشبهات . أنا الذى أراد أن يكون ما يكون فى وضح النهار ، ففى الليل يحدث غش كبير ، ثم ها أنذا فى المكان الذى وصفه بالضبط. لكن أى باب هو باب سعاد ؟ .. وأين هى سعاد فيهن ؟

أغلبهن خمريات ، لكن فيهن السوداء والبيضاء والمفلوج لم يصفها لى . أنا أسمر والبيضاوات أليق بى. منهن تخير من عساها أن تكون سعاد ، إنها تلك المرأة الخالية من الكلام ، مدورة الوجه ، ممتلئة العنق ، صاحبة الشفتين المكهربتين . نعم ، هما شفتان مكهربتان . صدرها ربوة وبطنها هضبة ، ووركاها يُخفيان بئراً لا قرار له ، لكن المفلوج لم يصفها لى ، والأبواب كلها معتمة .

ربما عاد المفلوج ليعطيها مع نصيبها فى المعلوم أوصافه. هذا يعنى أنها يجب أن ترانى ، فمن هى فيهن ؟ .. بعدما استعرضت مفاتنهن يجب أن اتيح لهن فرصة استعراضى . هذا تفكير منطقى . غادر براميل القمامة وفوق البازلت تدحرج ظله أمامه ، ممتداً طويلاً ، والشمس فى نهاية الزقاق مالتْ .

لحظنه . جميعهن لحظنه . توقفن عن مَدَّ حبال الكلام وكفتْ أيديهن عن نبش الأرز وأرجلهن عن إزاحة القشور ، نظرن إليه إذ يمشى بتؤدة يعرفن معناها. اتجه ناحية البيضاء التى اختارها، لكنه خشى ألا تكون هى ، فالمفلوج لم يصفها له. أعاد الكرة وما من واحدة نطقت أو أشارت، أو

فهم منها أنها تعرفه . لكن رؤوسهن - كل رؤوسهن - اتجهت نحوه ، وعيونهن - كل عيونهن - تسمرت عليه . قرر : ساسألهن وملعون أبو المفلوج .

أى شئ يفيد الآن ، فالشمس مالت ،وهو لا يفعلها إلا فى وضح النهار . فكم من بئر ملوث ، وكم من عانة تزحمها الحشرات .

وعاد إلى نقطة البدء . من أول الصف . المفلوج أخذ المعلوم ، فإن لم يلتق بسعاد فهو إذن مغفل ، ومشى أمامهن. رؤوسهن معه . عيونهن عليه . أنفاسهن باتجاهه . توسط قشور الباذنجان والبطاطس وواجههن . جميعهن مشرئبات متطلعات ، ينتظران ما عساه أن ينطق به ، فكر فى أنسب سؤال ، لكنه عاد وتراجع . ماذا لو لم تكن فيهن سعاد ..؟ ماذا لو كن يغرن منها .. لو كن غير ما تصور .. لو .. ثم إن المفلوج عمل ما عليه وحذره ، زم فمه وقفل حنجرته على الهواء الذى كاد يمر منها ثم استدار . لكنه لم يقطع من البازلت سوى مستطيلين أو ثلاثة .عاد بعدها وواجههن ، ملأ صدره بالهواء ومرة واحدة نادى : سعاد . من فورهن وثبن من مجالسهن وجاوبنه بصوت واحد . نعم .

لا .. ليستْ عارية تماماً ، فالغلالة التى بلون بشرتها معلقة إلى كتفيها بحمالتين نحيلتين من الساتان ، ومُذيلة بكرانيش الدانتيلا التى لولاها ما مست نهايتى ردفيها . متوقداً وقفت خلفها ، ملصقا خدى بخدها ومالتاً كفىّ بثديها . ظهرها لصق صدرى ، وعطرها فى أنفى رقيق أخاذ ، متأرجحين غفونا فى وقفتنا المتشية نتأمل أشياء - كما قلنا قبل غفوتنا - لا وجود لها إلا فى داخل كل منا . فجأة تخلصتْ منى فاضطرتنى إلى فتح عينى ، رأيتها تجتاز الباب وتمشى باتجاه الجرسونيرة . لم تقل لى لماذا فعلت هذا لكنها عادتْ ومعها شئ ، البوم. مددتْ ذراعى لأعاود ضمها، لكنها انزلقتْ وتربعتْ على الأرض . وضعتْ الألبوم فوق فخذيها فغاص طرفه بأسفل الكرانيش ، لكأنه قد مس المثلث المظلم أسفل بطنها .

حاملاً التهابى جلستُ إلى جوارها وطوقتها بذراع، فيما ظلتْ الأخرى خالية بلا عمل ، ضحكتْ وأشارت إلى إحدى الصور : الشلة .. زيزى ، ميمى ، مراد ، عطيات ، وأروى هانم .. أنا أجمل واحدة .. صح ؟ أمنتُ : صح . قلبتْ الصور : أنت لم ترنى فى باريس ولا روما .. المولان روج .. أى والله المولان روج ، فيتوريو .. ألا تعرفه ؟ .. فوتوريو جاسمان نفسه .. يقول لى أريفاديتشى . ما رأيك وأنا خارجه من البسين ؟ قبلتُ عنقها : مدهشة . هذه الصورة على سطح المركب .. وهذه فى فراندة الأوتيل ..

سوزى وكلبها ، وقهقهت : بعد الصورة قرم مناخيرها.. هل تعرف من تكون هذه الفتاة ؟ ... نظرتُ إلى الضفيرة والفيونكة ومريلة المدرسة وعرفت أنها هى . أنا .. هى أنا .. لا تقل أنك عرفتنى .. وهذه أيضا .. وهذه .

استمرتْ فى تقليب الصور ببطء فى البداية ، ثم بسرعة ، ولاحظتُ أنها لم تعد تتكلم ، وأن مرحها قد زايلها ، عند الصورة الأخيرة بكتْ . بل انفجرتْ بالبكاء لدرجة لم أعرف معها هل هذا الرذاذ الذى انتشر على فخذيها وصفحة الألبوم هو دموعها أم لعابها .

ربَّتُ عليها لكنها تخلصتْ منى ونهضتْ تاركة الألبوم على الأرض. وثبتُ إليها لألاطفها ، فى مواجهتها صورتها فى أحد المشاهد التى مثلتها . حاولت إدارة وجهها إلىّ ، لكنها أشاحت به عنى وصرختْ : سيبنى، واستمرت تبكى، فعدتُ إلى الألبوم وتفحصتُ الصورة الأخيرة . كانت لطفلة رضيعة ، لها رأس خال تماماً من الشعر ، لكنه يحمل وجهاً بريئاً ، عرفتُ فيه وجهها .

يقـــــين

أمرها مدهش هذه الفتاة . تضحك فتظنها لن تكف . ترقص فتتيقن من أنها لن تنتهى . تقول النكتة فتحلف عن قناعة أنه لا توجد فى الدنيا من هى أفجر منها . بنأمة أصغر إصبع يأتيها أكثر الرجال وقاراً . إن أدارت لسانها فى محيط شفتيها طَنَّ الشباب حولها كذكور المناحل . ومع هذا ، يحتفظ وجهها المدور بخيط محير ، نحيل رهيف ، لا يكاد يبين ، لكنه يحيط بالخدين الملساوين والجبهة العاجية ، ويشيع فى ملامحها طيوفاً من علامات الجد والحذر .

اقتربتُ منها فقالت : " دعنى .. دعنى وابتعد " . لكنى لم ابتعد. استعرضت وسامتى واخرجتُ تذكرتَى الطائرة . أكدتُ لها أن الفندق حجز لنا أفضل جناح . هناك .. عند المياه الخضراء الرائقة ، حيث كل شئ مباح، فى الخلاء وتحت أو فوق ملاءات الفراش ، لكنها قالت :"ابتعد " .

ابتعدتُ واستدارتْ ، فرأيت ظهرها إذ يهتز. هى تبكى .هكذا خمنتُ ، بل تيقنتُ ، عدتُ وربَّتُ عليها فصرختْ فىّ : " قلتُ ابتعد .. غُرْ" . شوه الدمع ماكياجها ، فرأيت أنه من الأوفق بالفعل أن أتركها وابتعد .

خطوات ونادتنى : " يا أنت .. تعال " . جئتها فأمسكتْ بيدى وفجَّرتْ واحدة من ضحكاتها :" سمعت آخر نكتة ؟". خايلنى الأمل فعبثتُ بالتذكرتين فيما ارتفع طنين المقبلين علينا ،وبحركة كالنسيم وضعتنى بين ذكور المناحل ، وبدأت رقصة تيقنتُ أنها لن تنتهى .

دون جـــــدوى

تتلوى بين أسياخ الموسيقى المساقطة من أبواق الساكسفون والترومبيت . تتلاطم فترن ، تتقذف إلى السقف فترن ، ترتطم بالأرض فترن ، وسط الرنين تدور . من فوقه تقفز ، ومن تحته تروغ . عيون الشبان تتدافع إلى صدرها ، تلتصق ببطنها ، وتلتف بسمانتى ساقيها. تخزها وتلسعها فتتأود وتلف حول نفسها . أصابع الكهول تنقر على الترابيزات، متحرقة، عاجزة . طرقعات الصنوج تهز الشرابين والأوردة ، بعضهم يهز كرشه والبعض يفرد ذراعيه ويموجها ، وهى تتلوى وتقفز وتنثنى وتميد مثلما تميد الطيور . العجائز متناثرات فى الأركان ، فى الوسط ، فى كل مكان . لهن مناقير معقوفة ومخالب مقوسة. يسلطن عليها عيون بلا جفون. يهمهمن فى آذان الزوجات والبنات . يلوين شفاههن ويتباهين بجمال غادرهن ومضى . يتصبب العرق من كل مسامها ، ينسرب عبر الثنايا ، يمتزج بالأنوار الساخنة. فوق السرة ثمة اشتعال ، بين النهدين عواصف ورعود.المدير يقف على مقربة والبودى جارد يعقد ذراعيه خلف العازفين، وهناك ، فى الأسفل ، يتناثر الجرسونات يفتحون الزجاجات ، ويتلقون هبات النواقين إلي المجالسة . المهووسون يتجاوزون الرؤوس والترابيزات. يتنافسون فى الوصول إليها، ينثرون البنكنوت فوق رأسها. يدسون ما يفردونه داخل السوتيان. يصنعون منه عقوداً يطوقونها به . وهى جسد عربيد يصهل ويرعد تحت المصباح الدوار ، وعينان تحاولان الفرار إلى ما وراء السقف والجدران بغير ما جدوى .

زهـــــرة

تجلس على أحد المقاعد العالية مستندة إلى البار وأمامها كأس فارغة . صدرها مكشوف وذراعاها محوطان بأسورتين قريبتين من الإبطين الملتهبين بعد نزع حديث للشعر . دارت فوق مقعدها وعلقتْ على شفتيها ابتسامة العمل . التقى بصرها ببصر الرجل الذى انشق عنه ستار الباب ، نحيل ، أشعث ، ويرتدى السواد ، وَزَنَتْه ورفعتْ منديلها إلى شفتيها . نفختْ فيه وسلطت عليه عينين تدربتا على الدلال . شحب وجه الرجل ، فنزلتْ من فوق المقعد ورفعتْ يديها إلى الزهرة البيضاء التى تزين شعرها. سوتها وعبرت من أمام الترابيزة التى جلس إليها . نهض محييا ثم عاد وجلس، انحنى إليه الجرسون فهمس له بشئ قال الجرسون: " عشرون جنيها بخلاف المشروبات " . دستْ النقود فى حقيبة يدها وتركته يتأمل وجهها الذى قربته منه ، ويديها الملقيتين إلى جوار الكأس المترعة والشمعة المنطفئة . بينها وبينه حقيبة اليد وعدد من القطع مختلفة الألوان ، هَمَّتْ بتحريك شفتيها ، لكنه بإشارة أسكتها وبأصابع متعجلة أخرج ورقة وقلما . لم يلمس ذقنها بالإصبع الذى حركه ، فقط أداره فاستدارتْ بذقنها ووجهها باتجاه الضوء . حدستْ بأن التماعات وظلال تمتزج الآن فوق وجهها وأن عينيه الهائمتين الآن على وجهها تبحثان عن النقطة التى يمكن النفاذ منها. هاهو يرسمها الآن ، وهى مستكينة صامتة ، فقد أيقنتْ أن هذا الرجل قد سبر غورها وعرف كل شئ عنها، وأنه بالقطع سيرسم وجهاً معذباً بائساً ويدين مشققتين ..وقد كان ..

ضمـــــير

تركت كل شئ ، الكأس والترابيزة ، وعيون الرجال ، وهرولتْ إلى أختها .

لا بد أنها فى حالة سيئة، وإلا ما أرسلتْ إليها بعد كل هذا العمر ، بكل هذه الالحاح .

أمام المدخل توقفتْ . أى شئ ينتظرها ؟ .. أى فاجعة ؟

الشقوق زادتْ ، وقشورالطلاء لها وقع مقبض ، أعشاش الزنابير تُرقش الأركان، وشوارب الصراصير تزحف على الدر ابزين،فأى فاجعة!

جرى ولد لا تعرفه : " أهلاً يا تانت " وقادها إلى الشقة. بأى وجه ستدخل ؟

بلاطات الفسحة هى نفس البلاطات القديمة . الكليم تهرأ فى مكانه الأزلى . أصبح مجرد خيوط ووبر.. والغرفة .. آه الغرفة .. نفس اللون .. نفس الأساس . والترتيب .

تدافع الذكريات يؤلمها . الذكريات السعيدة والمقيضة. أنفاس الذين عاشوا فى هذا المكان تعود .

ياه !! عينان أم حفرتان فى لوح من خشب . لولا اللمعة لظنت أنها ميتة.

" أنا ميتة يا أختى .. ميتة " .

" سلامتك .. الشر برة وبعيد"

" طلبتك لأسلمك أمانة " .

" أى أمانة ؟"

" ابنى "

صَكَّتْ صدرها ،، للصكة صوت الانفجار " لكنك تعرفين فى أى وسط أعيش " .

" أعرف .. وأنت وضميرك " .

انتهى الدفن فتفحصتْ الولد . مَلَّتْ عيناها من عينيه ثم أخذته فى حضنها وبكتْ ، من يومها تعيش فى ذات البيت وترفض مقابلة زميلات وزملاء الصالة .

بالكاد التَفَّتْ بمنشقها ، زرقاء فى لون السماء أو فى لون البحر. لازركشات أو نقوش . لا سحب أو أمواج . من النهدين تنسدل إلى ما فوق الركبتين ، عيناها لهما نفس الزرقة .

قوارب كثيرة سبحتْ فيهما . أكاد أحس بخفق قلوب ملاحيها، وأكاد أرى رعشة أكفهم إذ تحرك المجاديف وخوفهم من أن تشق أطرافها الأزرق الساكن . لو أنى ركبتُ سفينتى ومخرتُ كالماخرين لتهتُ وانتهيتُ إلى لجة العدم ، لجة أحسها ولا أرها . فلأبقى متفرداً أمام صفاء السماء وانفساح البحار ، فالضياء روح تغمرنى والألق نورٌ يتلبسنى ، وهى وأنا جسدان متقابلان . أتوق للتوحد بها ولا أدرى فى أى ملكوت تهيم. أيتها السماء الصافية لفينى بالأزرق الرائق،أيهذا البحر الهاجع لا تربد. فسماؤك بلا غيوم وأديمك بلا موج ، أما أعماقك فيقينى أنها تخفى مالا أقدر على سبر أغواره .. وحوش ربما ، وربما آلهة تتصارع ، وغرقى لا حصر لهم .. فأى خبيئة تلك التى حولها يحومون ؟ .. وأى فراديس غُلقَتْ أبوابها دونهم ودونى ؟

التقتْ أعيننا فذهبتْ نفسى شعاعاً وتوزعتْ بين أعطافها . خشيتُ الاقتراب من عينيها فانزلقتُ عبر خديها الأثيلين وتحممتُ بعطر شفتيها . داخلتنى شواظ النار فتقافزتُ وارتميت على طابع الحسن فى ذقنها .

أطللتُ منه على الكتفين . عاريان فتوزعتُ عليهما ومنهما هبطتُ إلى النهدين. مضمومان . بهرنى خط متن . مجرد خط متن محصور بينهما ، فتجمعتُ واندفست فيه ، بل حاولتُ الاندفاس فيه . نعم حاولتُ، لكنى لم استطع، فأيقنت أنى محترق هذه الليلة لا محالة.

أيهذا الجسم الغائص فى الأزرق. أيتها الدفقة المتجهة إلى البراح، خذينى من ركنى المقرور ، شدينى إليك. ضمينى . ضعينى داخل منشفتك قربينى من حناياك أو اسمحى لى ، فقط اسمحى لى ، بأن أمس الكنوز المدفونة فى الأزرق ، تورد وجهها المُندى . هكذا بدا لى . هكذا أحست . شمس فوق بحر . شمس تجاهد ليل شعرها. ملبد بالماء وملتصق بأذنيها وخديها . مرتم فوق ألق عنقها . شمس ترتكز على زنبقة وتطل على بحر ساج. وضعتْ كفاً فوق النهدين وضمتْ انفراجة المنشفة فوق الركبتين فتساقطت شهباً ونيازكاً.تقدمت خطوة وتراجعت خطوات. قلتُ : ستفعل شيئاً بالتأكيد ستفعل شيئاً ، لكنها لم تفعل أكثر من أنها زَمّتْ شفتيها فتدورتا وظهرت فى وهجها الشمسى غمازتان . دوامتان من ضوء ولهب ، تسايل عمرى وذاب فى الأزرق المنساب ، فيما خايلنى خفق صدرها. لعلها ستهبنى بعضاً من كنوزها . نعم ستهبنى بعضاً من كنوزها . لكنها استدارتْ باتجاه الباب المغلق . فتحته ثم اختفتْ تاركة لى البلاطات الزرقاء فى لون السماء أو فى لون البحر ، فضغطتُ على الريموت واعتمتُ كل شئ ورحتُ اشم رائحة احتراقى .

بـــــرنسيســـــة

نعم .. هى البرنسيسة ، العطوف الودود ، فاتنة الحى التى لا يستبين لها شئ ، يعشقها الفتيان ويطوقونها بمشاعر الامتنان إذا ما وزعتْ عليهم نظرة .. مجرد نظرة. يطاردونها بخطابات الغرام وطلبات المواعدة ، فترفض بلطف وتتأبى فى شمم . هم أخوتها وأبناء حيها .. الأجدى أن يخافوا عليها مثلما تخاف هى على أخواتهم ، يتحدثون عن جمالها الفتان بلوعة . يستكثرون أن يظل مستعصياً عليهم . يتشاحنون فيما بينهم ، كل يحاول أن يسبق زميله إلى قلبها ، وهى كما هى تتهادى فى أرجاء الحى. توزع فتنتها وطيبتها على الجميع دون ارواء . لما أعيتهم السبل استكانوا ، هدأت حركتهم ، وبدا أنهم قد ملّوا المطادرة ، فأسموها " حجرية القلب " وسكتوا. هى أيضاً سكتتْ .

من كان يظن أن بوابة الحى سوف تنفتح عن ذلك السمهرى أكحل العينين الذى ما أن واجهها وثَبَّتَ عيناه فى عينيها حتى ذابتْ بين يديه وقبلتْ المواعدة . وإذ تضمهما تلك الغرفة ، ملتصقى الأثداء والشفاة ، أضيئتْ الأنوار وظهر فتيان الحى شامتين صاخبين ، أعطوا السمهرى ما اتفقوا عليه وأبعدوه ، ثم أقبلوا على لحمها العارى مفتحى الأزرار والأفواه .. حتى بهلول ، عبيط الحى ، زاحمهم ليأخذ منها نصيبه .

مسكنة

قالت الأولى :

- مسكينة .. ستقتل نفسها من البكاء .

ردتْ الثانية :

- مسكينة فعلاً ، فزوجها خُطف منها خطفاً .

- لكنه مات كما يموت الناس.

- لا يموت الناس عرايا فى بيوت البغايا .

- هذا أدعى لأن تتمالك .

- إنها صغيرة ولا تعلم أفاعيل الرجال .

- ليس سهلاً ما يفعله الرجال بنا .

- صدقت.. ليس سهلاً ما يفعله الرجال بنا .

وانصرفتْ الأولى إلى عشيقها ، فى حين اتجهتْ الثانية إلى التليفون وطلبتْ زوج جارتها .

عســـــل

جريئة . إن أشارتْ إليك فأنت مقتربٌ منها لا محالة . لها جسم ملفوف وكتفان ممتلئان وعنق رائع . شفتاها نبقتان مخضلتان بحمرة لا تعرف أى يد سحرية رسمتهما. إذا ما خلعتْ نظارتها الطبية رأيت أجمل عينين. ولربما استهواك عسلهما الرائق فشمرت عن ساعديك واغترفت منه. نعم ستسمح لك فى البداية أن تدنو وتقترب ، لكن هيهات أن تُمنى نفسك بأكثر مما تسمح لك به . إن فعلت فأنت مطرود ومفضوح ومشخن ، ويساعدها فى التنكيل بك رجال كثيرون قنعوا بالنذر اليسير الذى تعطيهم إياه .

اللائى يتوضأن فى زهوة الجحيم

١ - فتاة التريكو
٢ - المرأة صاحبة الابتسامة
٣ - تانت عزيزة
٤ - ميراث
٥ - بهدوء
٦ - تربية
٧ - برش
٨ - محاولة للفهم

الجو حار قبل الأوان . السماء زرقاء وصفو إلا من بعض سحاب يشبه الغمام أو يكاد. حشائش الحديقة مشذبة والأزهار إما تتراقص فى أحواضها وإما تتأرجح بين الأغصان .

ظهرت ترتدى بلوفراً وجوية من التريكو وبيدها مظلة . لكأنها بوغتتْ بالحر . نعم هناك بعض من نسيم، لكن الجو حار . البلوفر لونه بيج فاتح ، لكنه من الصوف . رقبته طويلة والشرائط البنية التى تزركشه ليست مجرد شرائط . هى أربطة تزمه من العنق وعند الخصر. المظلة مفتوحة. بها نقوش وزهور فى لون الكريمة . لحقيبتها ذات اللون ، إلى جنبها تتأرجح ، ومنها تُطل إبرتا تريكو وطرف قطعة لم يكتمل نسجها .

البلوفر صوفى ، هذا صحيح ،لكنه رقيق وفيه رشاقة . فيه أيضاً ثقوب توحى ولا تظهر . كم بدت لطيفة وهى تمشى بلونها الرائق وسط زحمة الألوان التى تلهبها الشمس . لا يمكن لهاتين الإبرتين ، أو لأى إبرتين ، أن تنسجا هذا الجمال المتناغم .

افقتُ إلى ما لو فاتنى لندمتُ . فى مشيتها ما يشجع.. يشجعنى أنا .. أنا بالذات . ذهبتْ نفسى شعاعاً . وددتْ لو وقفتُ قبالتها وركعت أمامها . فوق الحصي المنضود أو فوق النجيل ، أو حتى داخل البركة الراكدة التي تبدو فى البعيد .أركع وأحيط ساقيها بذراعى . الثم أطراف جوبتها . أمسك

بساعديها وأريح رأسى فوق بطنها متوسداً هذا الفن البديع الذى نسجته أصابع أيا ما كانت ، فهى ماهرة .

كأنما عرفتْ ما يدور بخلدى . بعينيها النجلاوتين قالت : " لا.. لا تفعل " ، وأوسعت الخطى . كأنها تقول : " أفعل .. لكن ليس هنا " . لم أتمالك فتبعتها. حاذيتها حتى كدتُ التصق بها . بل إن مرفقينا احتكا أكثر من مرة تلفتتْ حواليها كأنما تخشى أن يرانا أحد أو أن يقتفى آثارنا أحد . لاحظتُ مرتين، وربما أكثر ، أنها تهم بتحريك شفتيها ، لكنهافي كل مرة تسكتُ . سألتها بصوت تعمدت أن يكون خفيضاً : " فيم تفكرين ؟ ". لم تُجب فقط مادتْ باتجاه الكوخ الملتف بالأغصان فتبعتُها ، فتحتْ لها الباب فزكمتنى رائحة غريبة ، ربما كانت رائحة الرطوبة وأسمدة الحديقة ، لكنها دخلتْ فدخلتْ ، رنتْ إلى من فوق كتفها وفكتْ ربطتين أو ثلاثا من ياقة البلوفر ، قلت :" أنت مطواعة .. لئيمة لكن مطواعة " .

لم ترد ، لكنها - ويا للمفاجأة - زارتْ . نعم زارتْ لم يخرج من حلقها سوى هذا الزئير، اقشعر بدنى، لكنى خمنتُ أنها تمزح أو تضع بعضاً من توابل المحترفات ، مدّتْ يدها إلى شنطتها فخمنتُ أنها ستخرج مرآة أو مشطا أو علبة بودرة ، لكنها أخرجتْ إبرتى التريكو وواجهتنى . شرعت طرفيها المدببين باتجاهى ، سألتُ : " مزحة ثقيلة هى ؟ ". لكنها دفعتْ بهما إلى عينى . حركة تلقائية أبعدتْ عينى فانغرستا فى صدغى. تأوهتُ " يا مجنونة " .

ورأيتها وسط ألمى ودمى تنزع البلوفر فهجستُ " هى سادية" ." نعم سادية ". وتمنيت أن تنتهى المسألة على خير ، ثدياها مكوران داخل

السوتيان وشعيرات متجاورة تحت إبطيها . بحلمتى أذنيها وبأطراف شعرها الذى نفر وبرّ صوفى عالق ، الإغراء قوى ، لكن دعاوى السلامة أقوى . تلمست الباب ، فإذا بالبلوفر يطوق عنقى ، أغلقت الباب بقدميها وسحبتنى إلى الداخل . لم أعرف، أقاوم أم استسلم ، أضحك أم أعبس ؟ .. لكنها ضغطتْ بعنف حاولتُ التملص فلم استطع . متحشرجاً قلتُ :" كفى " لكنها لم تكتمل . جرتنى إلي ساتر من قش فإذا بأدوات وخرق ، بعينين جاحظتين ولسان مدلى رأيت نملاً يمشى فوق قدم متورمة . " لم ألقها بعد للكلاب ؟" . بصقتها وهى تجرنى إلى ما وراء القش ، بكل ما استطعت حاولت فك البلوفر ، وبكل قواها راحتْ تضغط . التصقنا بالحائط وارتمينا فوق الأرض تمرغنا فوق القش والتراب ومزق الثياب. عبثاً ما أحاول. إن نهضتُ نهضت ، وإن سقطتُ سقطتْ . انغرست الشرشرة فى فخذى فتلويتُ ، زحفتُ باتجاه الباب وهى فوقى تشد أكمام البلوفر . أجرها وارتجف . تُحكم الشد وأحاول التملص ، زئيرها لا ينقطع وأنينى مخلوط بالتراب والسماد والدم والباب بعيد .. بعيد .. بعيد .

ماذا جرى لها ؟ .. شحوب وجهها لايخدع . أى ورطة أوقعت فيها نفسها ؟ .. لولم تحبه .. هو يعرف ما ألم بها .نعم يعرف . ربما هجس فى البداية ، لكنه الآن متيقن ، يشير إليها وتشير إليه .. غير أن المرأة صاحبة الابتسامة التى لا تعرف الشر تلازمه كظله . دائماً تراها خلفه ، يظهران فى الشرفة معاً ، لكنها لا تجاوره أو توازيه. أبداً لا تجاوره أو توازيه . من النافذة تراها وهى تخلع عنه جاكتته .. تعطيه البيجامة .. تقدم له الأطباق وتشعل له السجائر ، تعطيه فرشاة الأسنان ، وتغسل ماكينة الحلاقة. تفعل ما تفعل على مهل، لا تدقق فى شئ أو فى أحد ، هذا ما نلحظه عليها حينما تُرتب أو تنظف أو حينما تفتح الباب لضيوفه ، بعد أن تفتح تبتسم ، فقط تبتسم ثم تخفى وجهها بطرحتها وتنصرف فيما يشبه الجرى .

بالتأكيد لا تعرف بأمر الاشارات ، إن عرفتْ فلن تغار ، وإن اضطربتْ فى داخلها نيران الغيرة فلن تسمح لألسنتها بأن تطال ما هو خارجها ، أفهمها هذا بإشاراته . أى قوة سحرية تلك التى تجعلها تحب هذا الرجل السمهرى الرشيق بشعيراته البيضاء وامرأته الوديعة ؟

بإشارات يديه ونظرات عينيه دعاها لزيارته . باشارات من يديها ونظرات من عينيها سألته عما سيكون من أمر المرأة الطيبة . محاذراً أعطاها موعداً تكون المرأة الطيبة فيه نائمة فى سابع نومه .

راقبتْ انطفاء النور فى غرفة النوم ، واطمأنت للهدوء وراء النوافذ وباب الشرفة . فما من ضوء سوى ضو نواسه الانتريه . أضاءها ليوحى بقدر من الثقة لها ، والأمان بالنسبة للمرأة الطيبة .

أحسنتْ من زينتها وتسللتْ إليه . أمام الباب فكرتْ فى الكيفية التى سيقابلها بها . لن تسمح له بالتمادى بل ستسمح له بالتمادى ، ستقول له غيّر المكان لأنها لا تقبل أن تجرح احساس هذه المرأة النبيلة . نامة أو أقل تلك التى لامست بها الشراعة ، لعلها لم تلمس الشراعة أصلاً ، لكن الباب انفتح ، انفتح بسلاسة وعلى مهل . جاهز هو . دخلتْ فانصفق الباب ، ورائه - يالفزعها - معلقاً ومطعونا فى عنقه وصدره وبطنه ، رأتْ أحشاءه مدلاه تنتفض وتنبض . هَمَّتْ بالفرار إلا أن السكين كانت أسرع فحزَّتْ عنقها،وإذ تنبثق خراطيم الدم انطبع على بؤبؤى العينين وجه المرأة الطيبة ، ولم يكن عليه أى أثر للابتسام .

تانـــت عـــزيـــزة

ربما كانت خاطئة . ربما هرطقت بكلام مما يُحاسب عليه ، أو أطلقتْ سيلاً من النكات التى اشتهرت باسمها ، وربما غلبها هواها فالتقطتْ هذا الشئ أو ذاك باستئذان صاحبه أو بدون استئذان ، ربما .. وربما أحاط بها كل هذا وسبقها حيثما حلت أو لم تحل . وربما أيضاً صح ما يقال من أنها مسجلة خطرة ، وأنها ضيف دائم على أقسام الشرطة وأروقة النيابات وبوابات السجون ، وربما كان هذا صحيحاً ، وربما لم يكن كله صحيحاً . ربما .. لكن المؤكد أن شيئاً من هذا لم يمنعها من زيارتنا بين الحين والآخر . تزورنا وتأكل مما هو موجود . تتكلم كثيراً وتحكى حكايات مدهشة عن الرجال الذين ضربتهم ،وشعرها الذى لا تعرف كيف تصففه ، والراديو الذى أخفته فى السوتيان فانطلق منه عبد الحليم ، والأرنب الذى لعب تحت الفستان فأخذوها إلى المستشفى لتلده هناك. تحكى وتهرش فى أى مكان من جسمها : شعرها ، إبطها ، صدرها ، بطنها ، و... لا تتحرج من شئ . تقول أحياناً :" مادمنا نخلع هدومنا فلماذا نرتديها ؟" .. أبى دائما لا يكون موجوداً عندما تجئ. كذلك أخى . تقول أمى : " خذى حمّاما يا عزيزة "، فتدخل. من فورها تغنى وتزعق وتخرج مخلوقة أخرى . بطريقة ما تجيدها، تتسلل أمى إلى الحمام وتُلقى بالفوطة فى الغلاية والمشط فى الزبالة ، ثم تأتيها بأى مشروب ،وتقول " اشربى يا عزيزة " ، فتشرب ، وإذا حان موعد قدوم أبى تنظر أمى فى ساعتها فتنهض تانت

عزيزة . تأخذ ما تراه جميلاً فى عينيها وتمضى . آخر مرة أمى قالت لها :" هذه حاجة البنت " ، وأشارتْ إلىّ ، سألتنى ، وهى أول مرة توجه إلىّ كلاماً : " صحيح؟" .. خرجت من فمها هامسة على النقيض تماماً من طريقتها المعتادة فى الكلام ، هززتُ رأسى :" صحيح يا تانت " ، فتركتها وخرجتْ . لحظات وسمعنا هدير موتوسيكل أخى . هرولنا من فورنا فرأيناها تنطلق به . كان من الممكن أن تصرخ أمى .أكثر من هذا ، لو مَدَّتْ يدها لأمسكت بالموتوسيكل لكنها لم تفعل ، لو تركتنى لجريتُ وراءها وصرخت ، إلا أنها أمسكتنى فتسمرت إلى جانبها وشخصتُ ببصرى حتى اختفت . عندما استدرنا للدخول رجتنى أمى ، ككل مرة ، ألا أقول شيئاً لأبى أو أخى ." لكنه موتوسيكل وليد " . حلفت لى أنها ستشترى من نقودها موتوسيكلاً آخر. لحظتها .. ولحظتها فقط .. بدأت أسأل نفسى عن السبب الذى يدعو تانت عزيزة لزيارتنا دائماً فى وقت غياب أبى وأخى ، وكيف تعرف بأمر غيابهما ؟ .

ميراث

ترحل بعينيها إلى البعيد اللامتناهى . لا يهتز لها هدب ولا تعترى وجهها المشدود نأمة ،وهو نائم إلى جوارها يتماوج داخل جلبابه ويشخر ، وأسفل منهما يتراص أولادهما على الأرض ، الصبيان إلى اليسار والبنات إلى اليمين . ما تزال تتمتع بقدر من الملاحة ، والرجل فى نهاية الشارع معه فلوس. والرجل إلى جوارها يريد إخراج الولد الكبير من المدرسة ، وعمها فى البلد البعيد ليس له من وريث سواها وأخواتها ، قال الرجل الذى معه فلوس : سأعطيك فى كل مرة عشرين جنيها ، والرجل الذى إلى جوارها أذاب عمره بين يديها وأيدى أولادها ، وعمها لا يريد أن يموت . لو مات لأمكنهم سداد الإيجار وشراء ثلاجة والانفاق على تعليم الأولاد . تنكشف البنت الكبيرة ويعرى فخذاها ، والوسطى تستدير هاربة من ثقل الفخذين العاريين ، فيما يموء الولد الصغير فى حلمه . تثوب إلى وعيها فتهز النائم إلى جوارها وتبادره :

– سى عبده ..قم نقتل عمى .

قبل أن تغادر دخلن عليها. مكرمشات الوجوه ، مهشمات الأسنان، فى ذقونهن شعر وتحت أنوافهن شعـر ، عرفتهن بالاسم ، أم عزت ، أم صابر ، أم ربيع ، أم هشـام ، وأم الداوودى ، توجـستْ شـراً ، أرديتـهم السـوداء تعودت عليها عيونهن الكليلة هى التى تُخيف .اسـقطتْ الحقيبة والتصقت بالحائط .

" الداوودى كحيان " .

"الداوودى لن يعطينى شيئاً ".

"الداوودى أهطل ".

" أهطل وجلنف " .

"الزغبى بك سيعطينى المال بالزوفة ".

"فيلا وعربية وفساتين سواريه ".

" الزغبى بك سيصلح كل شئ ".

" كل شئ سيصلحه "

تحت وطأة نظراتهن سكتتْ . تقـدمن فالتصـقتْ أكثر بالحـائط، بهدوء أطبقن عليها ، وبطرحة إحـداهن خنقنها دون أن تجرؤ على الصراخ ، دون أن تجرؤ على المقاومة .

تـربيـــــة

أحبته وأغدقتْ عليه حنانها . أعطتـه نقوداً ليذهب إلى السينما ، ونقوداً ليتـمشى مع أصدقـائه ، ونقوداً ليشـترى ما يشـتهيه . حـين مرض طبيـته . صرفتْ عليه وعلمته ، ولمـا نجح كافأته ، لكن عندما علمت أنه يمشى مع تلك الفـتـاة، ضـربتـه وجردتـه من كل شئ ، أعـملتْ فـيه سـكين المطبخ وقطعت عضوه ، وعريانا مُجرحاً ألقتْ به إلى الشارع وأغلقت الباب .

بـــــــرش

نزعوا القيد ودفعوها إلى غرفة جانبية فدخلتْ مرفوعة الرأس متصالبة. أخذوا حاجياتها والتقطوا لها صوراً بعدما أمسكوها لوحة الرقم والتاريخ ، ثم أسلموها لتلك المرأة التى صعَّرتْ لها خدها وقادتها إلى الحمَّام ، بعد أن انتهتْ رمتْ فى وجهها بالجلباب والطرحة وعبرتْ بها الحوش .

تداخلتْ فى مسمعيها أصوات الأبواب والمزاليج إذ تُفتح وتغلق بثغاء الواقفات خلف الأبواب والنوافذ. فتحتْ صدرها للهواء واجتازت بوابة العنبر وصعدتْ السلالم الحديدية . توقفتْ ماسحات البلاط وتبادلن النظر فيما مشتْ هى والمرأة التى تجاورها بخطاهما الثابتة .

أمام الباب وقفتا . ثغاؤهن يأيتها متقاطعاً وغير مفهوم، والمرأة تستعجل الخلاص منها . بنفسها أخذت حلقة المفاتيح وفتحتْ ، رأينها فتوقفن عما كُنَّ يفعلن .ثبتن أنظارهن عليها ثم تصايحن وتشقلبن ضاحكات مهللات،فردتْ ذراعيها واحتضنتهن جميعاً.زمتْ شفتيها وقبلتهن جميعاً،وبقدمها ركلت الباب فأزاحت المرأة،وصارت وحدها معهن .

من فورهن أقمن لها حفلاً وأطلقن كل ما يعرفن من نكات خارجة. زغردن ورقصن لها وتقصعن وطرقعن بأصابعهن . غنين لها ، ومن الشباك أذعن خبر عودتها فتدوم فى أرجاء العنابر ، وعرف حراس الأسوار أنها عادتْ .

فى الصباح ، جلستْ على البُرش وبدأت تزاول نشاطها القديم وتفرض عليهن الأتاوات نظير حمايتها لهن ، فيما بدين مستسلمات طائعات.

كنتُ محتاجاً لأن أفهمها . لما قشرتُ وجـهها عرفتها. عرفتها لكنى لم أفـهمـها . هى المـرأة ذات الألف وجه . كـلما نزعتُ واحـداً ظهر آخـر . انهكنى النزع وأدهـشتنى الغرابـة ،فأقـبلتْ علـىّ بوجه لا أعـرف رقـمـه ونهشتْ عنقى ، قالتْ :

- يا أهيل..متى سمعتَ عن إمرأة سمحتْ لرجل بأن يُقشر وجهها.

وعادتْ إلى رقبتى تنهشها .

بعد الرعد تهطل الأمطار

١- أم محمد

٢- المرأة الواقفة على السلم

٣- غريمتان

٤- طرشى

٥- مواجهة

ما أن فتحتْ أم محمد الباب حتى رطم بالشريط اللاصق شفتيها. صرختْ غير أن الصرخة ارتدت إلى جوفها بعينين أذهلهما الرعب رأتْ يدى الرجل تنقذفان وتُحكمان لصق الشريط. غُصَّتْ بصوتها فيما التفَّتْ اليدان بحبل حول كتفيها وذراعيها. شُلَّ تفكيرها لما بانتْ لها عيناه. صارمتان، والقناع صوفى ثخين. من ثناياه لفحتها أنفاسه. لها رائحة النفتالين. أفاقت فجثتْ وحَمَتْ رأسها بين ركبتيها، لكنه زمَّ شعرها وشده، تشبثت بالأرض فشاطها وأنهضها ليندلق البول على ساقيها وقميصها والسجادة .

خَطتْ بساقيها الطليقتين فى الاتجاه المعاكس، فَرجَّها ولطمها بالحائط، استماتتْ وزامتْ وأنّت . بكل ثقلها الصقت صدرها بالزاوية ، لكنه أحكم قبضته على الحبل وسحبها إلى الداخل . فتح الأبواب التى لاقته إلى أن وجد غرفة النوم ، فرفعها وألقاها فوق السرير، وشد سلك التليفون فقطعه.

صرختْ وجأرتْ وهى تعلم أنها إنما تصرخ لداخلها. محمد فى المدرسة وأبو محمد فى المصنع فأى عار سوف يلحقه ويلحقها . خلع الحزام وهى جسدٌ ملقى فى انتظار الافتراس . شمت رائحة صينية البطاطس . إن لم تُسحب الآن من الفرن احترقت . تقلبت فى السرير وأسقطت نفسها فانحنى عليها بينطلون لم يُفتح . لطمها ثم رفعها وهبدها على السرير .

ذراعاها إلى جنبيها مربوطتان ،والتليفون إلى جوارها بلانفع .

فكرتْ : باب البلكونة مفتوح ، وقدماى طليقتان . أربع خطوات فقط وأجتازه . سيلحقنى صحيح ، لكن الجيران سيروننا أو المارَّه ، ولربما ألقيتُ بنفسى .

رفعتْ جذعها وأدارته باتجاه البلكونة ، فترك أزرة البنطلون وكال لها الضرب حتى تورم وجهها ، " لم أربط رجليك لزوم ما تعرفين " . مَدَّ كفيه إلى قميصها فمزقه . بعدها اتجه ، متعثراً فى بنطلونه ، إلى باب البلكونة فأغلق الشيش والزجاج وعاد قفزاً . ولأنها كانت قد نهضت ، فقد أرقدها بلكمتين وأخرج ثدييها من تحت مزق القميص ولفات الحبل، ثم برك على الفراش وبدأ ينزع البنطلون وما تحته .

سيعرى أمامها كما عَرَّاها . عريها يخزيها وعريه سيقتلها. " قدماى طليقتان ". هذا ما رَنَّ فى رأسها ، رفعتْ ساقيها فضحك : " تستعجلين .. هه ؟ ". غير أنها فى أقل من الومضة لفتهما حول عنقه وضغطتْ . زام ومد يديه لينزعهما، لكنها أحكمت شنكلة ساقيها وضغطتْ بشدة . قام فسحب جسمها كله ليتدلى بكامله فوق ظهره. فكرتْ:"لو جلس فجأة أو فك قدمى فسوف يقصم ظهرى ويكسر عنقى". بسرعة مَدَّتْ كفيها المقيدتين من وضعهما المقلوب إلى حافة بنطلونة المعلق بين ساقيه وشدته فاختل توازنه سقط وهى معه كادتْ ساقاها تنفكان ، لكنها شدَّتْ أكثر ، حاول النهوض فأسندتْ جسمها إلى رجل السرير وأعادته إلى الأرض. بقبضتيه ضغط على ساقيها ، لكنها زنقتْ رأسها فى رجل السرير وبكل ما تملك من قوة دكت رأسه فى الحائط .

قال : " آه "، ومد كفيه إلى رأسه ، فرطمتها مرة أخرى. أحسَّتْ بقوة الفولاذ تسرى فى ساقيها . ارتخاءات أصابعه الهيتها ، فثنت جذعها وأخرجت رأسها من تحت السرير. جلستْ على الأرض ، ساقاها حول رقبته ما تزالان. صوتٌ يخرج من جوفه أم زومة .. لا تعرف .. لا تريد أن تعرف ارتكزت على كفيها المغلولتين ورفعتْ الساقين فارتفع رأسه هبطت بهما فهبطت رأسه ، رأت الدم إذ يبج أسفل شعره فأعادت الكرة والرأس مطاوعة .

انفكتْ القدمان فجأة . تعباً أو خطأ ، فوثبتْ وبكامل ثقلها هبطتْ فوق صدره . إذ سمعتْ طرقعات ، فيما امتدت يداه تتشبثان بالحبل الذى يقيد ذراعيها ، فثنتْ رأسها وضربتْ وجهه . أحست بالدم ينبثق خيطاً رفيعاً فوق أحد حاجبيها . من فورها هزتْ رأسها ودلت شعرها ثم انثنتْ فوق الوجه الملمم وبكل ما تملكه من غل دفست شعرها فى عينيه وراحتْ تحك جبهتها بوجهه وبأنفه وبعينيه .

خلَّص جسمه . رفعه وحاول أن يُسقطها ،لكنها وثبتْ مرة أخرى وارتمت بعجيزتها فوق صدره فهبط إلى الأرض . عدلتْ نفسها وغرزتْ

ركبتها فى بطنه وضغطت ، وثبتْ وضغطت .. وثبتْ وضغطت . أدخلت أحد قدميها فى الفجوة بين السروال المعلق بركبته وأعلى فخذيه وأخذت تضرب. تأوه وصرخ . مد أصابع كفيه الاثنتين إلى وجهها . طال فكها السفلى فشدهُ . ضربت فى نفس المكان ضربة أخيرة فانتفض ونطق" آآ .." وهمد.

منفوشة الشعر ، مُعَرَّقَة ، جلست . استندت إلى الفراش ، ثدياها محزوم أعلاهما بالحبال والحلمتان فى الهواء ترجفان . أمامها الجثة ومزق ثيابها ، فكرتْ فيما عساه أن يقوله محمد وأبو محمد حينما يعودان. ولأول مره انخرطت فى البكاء فيما أنتها رائحة احتراق البطاطس .

بوجه جامـد وقفت أمامه . وجـهه أيضا جامد . عـيونهما مـتقابلة . كل عين مسمرة فى الأخـرى ، فمها مزموم وفمه مفـتوح على آخرة ، لم يصدر من أيهـما صوت . لم تصـدر نأمه . حـينما اهتـز جذبتْ المـقبض فـخرج النصل وخيط ثخين من الدم . مـبهوراً تأمل البَجَّة إذ تنفرش بـالأحمر فوق قميصـه فيما اهتزت شفتـاها ورف عليهما طيف ابتسامـة . رفع بصره إليها وانقض على عنقهـا فلم تهتز . لم تطرف . لم تصرخ . فـقط رفعتْ النصل وهوت بها على كتفه فزأر . أطاح بساعديه وعوى . طالتْ أظافره رقائق من جلدها فسلخها ، بصقتْ عليه فلم يمسح البصقة، فقط أرغى وريمٌ انقذف من فمه . السكين فى يدها حمراء النصل مُشرعـة . غرزتها فى عنقه فشخر ودار حول نفسـه واستند إلى الحائط،فيـما اندفق الدم فوق المقـبض وغمر أصابعها، سحبته فبج الدم ، وانبـثق نافورة هائجة من الأحمر رشتْ وجهها والأثاث والحـوائط وأرجحت كـريستـال النجفـة فاصطك ببـعضـة ورن . ملتاثاً هجـم عليها ، قـبض على عنقها فـدفعتـه عنها ، إلا أنه ارتمى عليـها وانهال على وجهها لطماً وهى ثابتة مكانها،مس خاتمه أحد عينيها فحرقها. من فورها دسَّتْ السكين خلف الترقوة وغرزت أصابعها المدماه فى عينيه . اقتلعتهما من محجريهـما فجأر وطاشت يداه في كل اتجاه .فُقئت إحداهما بين أصابعـها فـسالت ميـاهها لزجـة مغمـوسة فى الدم القانى والـمتخـثر، وتعلقت كـتلٌ من هلام بأظافرها وفوق أنفـه وأطراف شاربه. أعـادت غرز

أصابعها فى المحجرين الخاليين وأوسعت الفجوتين إلى أن اخلتهما إلا من خيوط الدم النازف . مجنونا مشوهاً عض الهواء وركله ، طالت ركلة بطنها فانتزعت السكين وطعنت فى الصدر، وفى الحوض ، وفيما بين الساقين ، وهو جلدٌ يترنح . يُقبل ويتراجع ، وبسكينها تضرب وتضرب وإذ يسقط تسقط فوقه . بالنصل تجز العنق . من الأذن إلي الأذن ، تقطع الأوردة والشرايين . تغرسها فى الحنجرة وتفصل الفقارات . ينتفض الجسد وسط الفوضى المحيطة فتضغط عليه ، تضغط وتزيح الرأس ، أطراف الأوردة تنتقض ، والدم ما يزال يندفق ، واللحم أسفل منها يعلو ويهبط. ارتمت على جنبها ، وبالسكين شقت البطن فارتعش الجلد واندفقت الأحشاء ثعابين تزحف حول نفسها . جثت على ركبتيها وشقت السروال فصلتْ الخصيتين وما فوقهما فارتفعت كتلة اللحم وهوت ما يزال الدم ينزف ، ومن فتحات العانة والبطن والرقبة تصدر أصوات . غرزت السكين فى مكان القلب فارتطمت بعظمة ولم تنفذ . سحبتها وبكل ما أوتيت من قوة طعنت فثبت اللحم الذى همد بالسجادة وخشب الباركية. انتزعتها بصعوبة ، وإذ تهم بالطعن من جديد دقت الساعة فارتجت ، ارتجت ثم أفاقت . الصمتُ يحيط بكل شئ . كتلة اللحم ساكنة حمراء ، والذراعان مفرودتان على استطالتهما ، والأصابع مقوسة والرأس مطوحة مدلاة اللسان ، والخصيتان فى التصاقهما بالدم تنفذان ماتا فى بركة . انتصبتْ واقفة وشدت ثوبها المثقل بالدم والعرق. أزاحت خصلة التصقت بإحدى عينيها ثم رتبتْ أنفاسها واتجهت إلى الباب فتحته.على مصراعيه فاصطبغ المقبض بالأحمر، على بسطة السلم وقفت . وأمام أول عابر قالتْ :

خاننى .

غـريمتـــان

قف هنا وتابعـها وهى تطلع السلالم المؤدية إلى المشـغل ، انظر كيف تقبض على حقيبة يدها ، هاهى قـد اختفتْ. لنصعد هذه الدرجات الخمس ونقف عـند هذه البـسطة .هاهى تـترك سـلم المـوزايكو وترتقى السـلم الحديـدى. فلنصعد أيضا درجتين . هانحن فى موقـف يتيح لنا رؤيتـها . الحلزون يخفـيهـا فتعـال إلى شباك المنور . احـترس وإلا لمـحتنا . هاهى تضغط جرس الباب .انظر إلى وجهها ، هل ترى ؟ .. تضغط على نواجذها وتحرك أصابعـها على قفل الحقـيبة . إن لم يكن هذا هو التوتر بعـينه فماذا عـسـاه أن يكون ؟ . اخـفض رأسك فـإن البـاب يفتـح .. ياالله .. هذه هى غريمتها إذن . يالجمالها الأخاذ ، ظلل عينيك بكفيك حتى لا تغشيا مثلى .

انظر إلى بـساطة ثيابها ووداعة نظراتها إذ تسـتطلع وجه الواقفة أمامها ، حديد الدرابزين يُخفى أموراً كثيرة. أنتبه ، الغَّمازة الرائعة التى تتوسط ذقنها تهتز وتضـيق ، وأصابع غريمتها تفـتح الحقيبة . ماذا عـساه أن يحدث ؟ .. لماذا لم تأتها من الباب الأمامى ؟ ..

هش . اسمع . الجميلة تهم بالكلام :

- إذن فأنت التى تعيشين معه .

- نعم .. وأنت التى فتنته .

- نعم ..لكنى مشغولة جداً الآن .

- لن أعطلك كثيراً .

هيا .. اترك النافذة وتعال نصعد. اقفز والحقني." أخ" . أغلقنا الباب. ترى ماذا تقولان ؟ .. ماذا تفعلان ؟ .. أى شئ سيخرج من الحقيبة المفتوحة ؟ .. لو نفذنا من هذا الباب .. لو .. انصتْ . ثمة جلبة وراء الباب . هذه أصداء صياح . آه .. هذه طلقة رصاص ، قطعاً طلقة رصاص .. الحقيبة المفتوحة .. تذكر الحقيبة المفتوحة .. فلنخبط على الباب .. لا ينفع الخبط فلنقتحمه .. هُبْ .. هُبْ .. هيلا هوبْ .. ياألله .. تتحاضنان وتبكيان .. إنهما تتحاضنان وتبكيان . فتيات المشغل يُحطن بهما ، أياديهن على أفواههن وصدورهن . انظر إلى الحائط ، عينا رجلهما فقئتا ورقبته ذُبحتْ بزجاج الإطار المهشم .

طـــرشـــى

هبط (جميل) إلى الحارة .مثل فلقة القمر رأته (وجيدة). يتمخطر فوق مربعات البازلت ، ويتجه إلى الركن الذى تقبع فيه (جميل) له شارب رفيع ومقاصيص تتأرجح فوق جبنيه. كأنه يبحث عنها هى ولا أحد سواها . كأنها تنتظره هو ولا أحد سواه. (وجيدة) فقيرة ، هذا صحيح ، لكن ملامحها مقبولة ، ولديها تحت فستانها أشياء تخفيها .

- أنا يتيم .

- وأنا أيضاً .

- ليس لى أصدقاء .

- ليس لى أحد .

مد (جميل) يده ومدت (وجيدة) يدها . بادرها .

- كل شئ هنا يخنقك ..

وهام فى عينيها :

- .. أنت هنا ميتة .

أشاحت (وجيدة) بوجهها حتى لا يرى (جميل) الدموع إذ تبلل خديها .

- تبكين ؟

- لا .. لا ..

(وجيدة) لم نعتد الإمساك بمناديل تصلح لكفكفة الدموع.لا نملك ما نشتري به منديلاً من ورق أو قماش . جففتْ خديها بأصابعها التى أخرجتها لتوها من برطمان الطرشى وارتج عليها .لا تعرف أى شئ تقول.

قال (جميل) :

- تماسكى .

ونظر إلى عينيها .

هجستْ بأنه سيقول كلاماً كثيراً ، وأنه ربما طلب منها ما يغير حياتها . ربما خلصها من برطمانات الطرشى والمخلل. لن ترفض له طلبا . لن تكسر له قلباً. لو طلب الزواج ستوافق . لو شاء أن يعاشرها دون زواج ستعاشره . تعبات تماماً وتهيأت له. بكل مسامها تفتحتْ ، كيف يمكن لشفتين أن تقولا كل هذا الكلام الحلو ؟ . ليته لا يكف. لا .. ليته ويحدثها بما يريد . نعم ليحدثها بما يريد ،فكل ما ينطق به حلو . حلاوة الملبن والعسل ، ابهجها أن تلتقط من فمه الكلمات الأكثر بريقاً وألفة..الكلمات التى تريد سماعها:(سآخذك)..(تعالى معى).. (لا تتركينى) .. يالها من كلمات . يالها من بشارة . حثته بعينها .. قل يا (جميل) .. أكمل .. قل ..

فجأة انتهى (جميل). فجأة نطق . نطق بما ألجمها قال :

- نحتاجك فى الكباريه الجديد .

بغير ما تردد أمسكتْ برطمانات الطرشى وبها ضربته .

مـــواجهـــة

" لنفترق "

قررتْ وليكن ما يكون . إلا أن المرأة المطلة من المـرآة أوقفتها. تبادلا النظر . كلتـاهمـا تشبـه الأخـرى ، غيـر أن إمـرأة المـرآة أقوى . بادرتهـا : احتشدى ثم أطلقيها " لنف...ترق". لا بأس ضُميها لكن بقوة ." لنفترق " . لا تتنحنحى . بادريه بتفجيرها. أطيحى بوجهه " لنفتـرق ". ليـس هذا كافياً قولى .. " لنفترق " . انفجرى .. هيا .. انطقى ..

- " لنفترق" .

جميل .. مرة أخرى .

-" لنفترق " .

كرريها .

- " لنفترق " . " لنفترق"

رائع . إذهبى إليه. أذيقيه ما أذاقك . دمريه ، فأنت الآن جاهزة .

مشحوذة الهـمة حملتْ حقيبة يدها وانـصرفتْ . وإذ تهم باغلاق الباب توقفتْ . يدها على الكالون وصدرها ما يزال يعلو ويهبط ، إصبعان تحركا أو ثلاثة ، التواءات اعترت وجهها واختلاجة هزت جسدها . مسرعة عادت إلى المرآة تـواجها . هى نفس الـمرأة . لم تمهلـها. بكل ما لديـها من غل سبـتها . ركلتـها فى قصـبتهـا وبصقت عليـها ، ثم عبـأت نفسـهـا فى لكمة واحدة وجهتها إلى فكها فانهارت تماماً وتوزعت مع هشيم المرآة شظايا .. مجرد شظايا .

للوطن منهن حضور .. للوطن فيهن نصيب

---

١ - تلك الفتاة
٢- سامية وزفت الطين
٣- تراشقـــات
٤- نـــــورانية
٥- إمـــرأة بذيل
٦- بلـــــد
٧- البنت فى الثوب الأحمر
٨ - ريـــــاح
٩- لا
١٠- التهـــاب

من أين جاءت تلك الفتاة ؟

أى قطار ألقى بها .. أي أتوبيس أو طائرة ؟

قيل بل رماها البحر ، وقيل أسقطتها سحابة . إلا أن البحر الرصاصى اهتاج ومد ألسنته " لستُ أنا " والسماء الملبدة سمحتْ للسحب المغتاظة بأن تبول علينا فبالتْ وتقلقلتْ البحيرة فارتفعت نوافير الطين وغطت المتجعات المتماسة بحوافها .

قال السائقون والكمسارية والحمالون ومفتشو الجمارك " لم نرها فى محطة أو موقف أو مطار ". وزأر كبير الشرطة "ربما انبثقت من المجارى". فانبرى رئيس البلدية " مجارينا نظيفة ، ما فيها نتاج الأطهار البررة ". لكنها الفوضى تتفجر فى كل مكان تظهر فيه .تثور أتربة وتشتعل حرائق ويعم الهياج . الكباش والجديان تناطحت . انطلقت هى والقطعان من الحظائر إلى تقاطعات الأسفلتْ وافترشتها . تطايرت أعراف الجياد والأفراس وقدحتْ سنابكها بلاطات الأرصفة، واختطلت الأبقار بالثيران والخنازير وذوات الألسنة الصنوبرية ، فيما مد البشاروش أعناقه وطار هو والبط وطيور الغُر فوق بيوت المدينة .

تشبثت الحرائر بحواف النوافذ لئلا يسقطن ، وفرحت بنات الشوارع وهللن ، فيما هجر الأزواج الأسِرّة ، وتخفف الفتيان من الأثقال التى

أجبروا على حملها ، وتواثب أصحاب العيون المطفأة بالإتجاه الذى تكون فيه ." أولادنا يتسربون . يمشون وراءها ويهطعون " . ثم ركل نقيب المعلمين المنصة وألقى بالميكروفون .مصفر الوجه اعترف آمر المرور" فقدنا السيطرة على الشوارع ". وفى البورصة علا شخير السماسرة واحتقنت جلود رجال الأعمال. ضج الحكماء بعدما فارقتهم ابتسامات الدراية ، " وأين صناديد الجيش ؟ !" ، غير أن راكبى المجنزرات تركوها ، وحاملى الأسلحة رموها ، وفك الجند أزرة سترائهم وتبعوها .

تراكل الساسة ورجالات الحكومة ، وكتبتْ الصحف عن الوزير الذى فر من تحت القبة بعدما أسال النواب دمه ، قال عدد من المحللين " لا يعنى ظهورها فى مدينة واحدة أنها أصبحت مشكلة قومية، " إلا أن الدوائر الانتخابية النهبت لما ظهرت فى كل النواحى بلدات الهيئة فى ذات الوقت. لم يراها أحد فى محطة أو موقف أو مطار. لم تنبثق من أرض أو تنقذف من بحر أو تسقط من سماء يكفى أن تتجمع فى الخلاء أو بين البيوت كتلة من رياح أو ألق من ضياء ، أو غمامة من غبار أو دخان أو ضباب فإذا بها موجودة ، وإذا بالجنون وبالحرائق .

قالتْ صخرة " هى وحدها ولا أحد غيرها يستطيع تحريكى ". وتنهدت حصاة " ليتها تمر على .لو فعلت لتحولت إلى هضبة أو جبل". واهتزت قشور الملاط فوق الجدران ، وتأرجحتْ فيما تلاطمتْ الحشرات فى خروجها من تحت جير الحوائط ومن الأخرام التى أحدثتها الرطوبة .

" ميتافيزيكس" ، بل" ميتامورفوسيس " ، ربما كانت هى " الميتابوليزم" .. لا هذه ولا تلك ، إنما هى حالة فريدة من حالات " المتياريالزم ". وتضارب أساتذة الجامعات والعلماء . خلعوا

مهتاجين أرواب الوقار وشهروا المشارط والأحماض وكتل المراجع والموسوعات فى أوجه بعضهم البعض . دمروا بأيديهم أنابيب الاختبار والمعامل والمكتبات وغرف البحث والمدرجات ، وخرجوا مشخنين مشعثين إلى الشوراع وركضوا ركض السوقة والعوام باتجاهها .

باقتضاب قالت المذيعة إن المتحدث الرسمى لمؤسسة الرئاسة صرخ بأن الموقف تحت السيطرة ، فى حين نقلت وكالات الأنباء صوراً حية للقلق الذى يسود الدول المتاخمة ، وانكفأ أعضاء المفوضيات فى الأمم المتحدة على المذكرات التى انتووا تقديمها إلى مجلس أمنها وجمعيتها العمومية.

وما تزال الأتربة تثور والحرائق تشتعل ، وشاهدها حراس الحدود بأعينهم المجردة ، وما يزال السؤال يتردد : من أين جاءت تلك الفتاة ؟

لبت الحواشى :

- ميتافيزيكس Metaphsics ما وراء الطبيعة .

- ميتامورفوسيس Metamorphosis التحول أو الانسلاخ.

- ميتابوليزم Metabolism التغيرات الكيميائية فى الخلايا الحية المرتبطة بالطاقة والنشاطات الحيوية والمتصلة ببناء البروتو بلازما وهدمها أو ما يعرف بالأيض.

- ميتاريياليزم Metarealism من اشتقاق المؤلف ويقصد به ما وراء الواقعية ، أو الواقعية الأسمى ، وهو مصطلح أدبى سيق لتبرير ظاهرة غير طبيعية .

ساميـة وزفـت الطـين

اختفتْ سامية . خطفها العـساكر ووضعوها فى البوكس كانت تتظاهر وتهتف وهم بخيزراناتهم يضربون . رمتهم بشئ وجرت . رمتهم لأنهم أخذو أخاها بالأمس .أمام أبواب البيوت وداخل الدكاكين المغلقة دار لغط، قيل لم يخطفوها بل قتلوها ، وما وضعوه فى البوكس هو جثتها . وقيل : بل أصابوها ونقلوها إلى مستشفى لا يعرف لها عنوان. المكروبون قالوا إنهم قبضوا عليها مكسورة الأنف مشرومة الشفة لكن سليمة ، وأن ما بها من حسن قد يضعها بين فكى اليوزباشى زفت الطين.

اليوزباشى زفت الطين يُلقى الرعب فى نفوس الكافة . رجال، نساء، عيال ، لايهم . كلهم عنده كلاب وأولاد ستين كلب ، كلهم منه مرعوب ، لا يعرفونه بغير هذا الإسم. اسمه الحقيقى طُمس واندثر ، لا يكاد يُذكر فى غير المكاتبات واستمارات صرف الرواتب . شغفه بالفقيرات ومن بهن مسحة من جمال – مجرد مسحة من جمال- تحكى عنه روايات وروايات. من راقتْ له استعملها أو أهداها لواحد ممن يجاملهم. لذا فإن الشكاوى التى تقدم ضده تحفظ فى الأدراج باعتبارها شكاوى كيدية ، وأحيانا – بحذق وحذر -يُلوحُ بها فى وجهه ليتوخى الذوق والنظافة فيمن يرسلهن.

لا توجد إمرأة أو بنت تطمئن على نفسها إذا ما اهتاج زفت الطين أو أصابته الغُلمة . الضحية تجد نفسها فى ورطة ، فإما الاستسلام وإما الفضيحة ، ولربما السجن .

الأمهات يخفين وجوه بناتهن ووجوههن أيضاً خوفاً من عينيه ومن عيون المخبرين . المخبرون يُعاملون معاملة الباشاوات لأنهم الأكثر دراية بما فى البيوت . جهاراً نهاراً يقبضون المعلوم وإلا هيأوا الأمر لليوزباشى زفت الطين .

ربما صادهن مثلما تُصاد الفراشات ، وربما تساقطن عليه مثلما يتساقط الذباب . مع الذباب الأمر أيسر ولا يتطلب جهداً ، يحدث هذا فى قضايا السرقة والمخدرات والدعارة. نعم .. هذه القضايا معين طيب.لكن مع السياسيات فالأمر شديد العسر ، فلم يكن يوماً فراشات أو ذباباً ، ويحتجن إلى مهارات صيد خاصة .

وهاهى ذى سامية تدخل إليه برجليها . سامية التى ترتدى الرشيق الأنيق وترفع الياقة وتشمر الكمين . اليلوكامين عبد العال أشفق عليها، أعطاها القُلة لتزيح الدم المتجلط فوق وجهها ، وبشريط ورقى مصمغ كبس قطعة قطن ، عاصها بالميكروكروم ، فوق الشفة المشرومة . هكذا نزل عليه سهم الله . وسهم الله حين ينزل لا يحتاج إلى أسباب ، لكن البلوكامين عبد العال جمع من الأسباب ثلاثة . فهى بنت بنوت ، وهى جامعية ، وفيها - وهذا هو الأهم - شئ من حسنية ابنته التى دفع بها إلى كلية فى محافظة بعيدة ليبعدها عن ابن القحبة زفت الطين . فى واحدة من نوبانه الشجاعة تعمد أن يكتب إلى جوار اسمها بخط عريض يخرق العين(قضية سياسية)، لعل زفت الطين يعمل لها حساب ويفكر فيما وفيمن عساهم أن يكونوا وراءها . لكن لحظها العاثر لايوجد بالحجز من جنس الحريم سواها .

قال : هاتوا لى بنت الكلب اللى اسمها سامية .

تفرس فيها من فوق لتحت واستملحها :

- انت يا بت عاملة لى زعيمة .

لم ترد ، وفى الخارج راح البلوكامين عبد العال يأكل فى نفسه :

- بقى بتضربى البوليس ،وبتهتفى ضد الحكومة ؟

ومثلما هى العادة ، فتح ملفا ليس به شئ :

- حاتروحى فى ستين داهية

وقرأ من دماغه :

- تقويض نظام الحكم .. تأليب طبقة على طبقة .. ترويج شائعات .. قيادة المظاهرات ومقاومة السلطات

ورفع عينيه وغزهما فيها .

- يمكن نلاقيلك كمان تهمة الانضمام إلى تنظيم مسلح .. مش أبوكى اللى احنا قبضنا عليه إمبارح.. أبوكى واللا أخوكى ؟

جاء التليفون بالفرج للبلوكامين عبد العال ، فاقتحم الباب فى الوقت الذى اقترب فيه زفت الطين أو كاد من سامية. رطم الأرض وضرب تعظيم سلام :

- القرية السياحية بتشتكى من تلات شحاتين بيضايقوا الزبائن .

على الفور نالته من العينين المشتعلتين شعلة حريق :

- جرى إيه يا عبد العال .. مش شايفنى باشتغل ؟ .

خرج عبد العال مغيظاً مهيضاً ، ومن ورائه أغلق زفت الطين الباب بالترباس وبحركة واحدة احتوي وجه البنت بين كفيه :

- خدى المسائل ببساطة تستريحى .

من فورها انتزعتْ وجهها وجسمها . تدلى الشريط المصمغ فألصقته وتراجعت . تقمص هيئة القط .. هيئة اعتادها وحققت نجاحات كثيرة ، لكنه فوجئ بها قطة من نفس الجنس . خمشته فى وجهه فلطمها . دفعته فدفعها . وفى اللحظة التى سقط فيها البارافان وانقلبت الكنبة . كان البلوكامين عبد العال قد أرسل على مسئوليته إشارة إلى النيابة يخطرها ببيانات المقبوض عليهم فى مظاهرات الصباح ، أكثر من هذا كلم عامل السويتش بنفسه وناشده أن يتدخل لدى سعادة رئيس النيابة أو سعادة الوكيل لانقاذ البنت من زفت الطين . لكن عود البنت كان قد انثنى تحت زفت الطين ولامس ظهرها بلور المكتب . سمع شحيره وأناتها وحار ماذا يفعل، لو اتصل بالقادة فالدنيا ستقوم ولن تقعد وهو الخاسر فى النهاية.

لم تُفلح الأشياء التى خطفتها سامية من فوق المكتب ورطمته بها . عثرتْ يدها على فتاحة الخطابات فغرستها فى قفاه ، اعتدل وتأوه فهرولت إلى حيث مطفأة السجائر البللورية وقبضت عليها . نزع الفتاحة وترك دمه يسيل :

- يا وسخة يا بنت الأوساخ .

كلب مسعور أو ذئب هائج . هذا ما رأته إذ يعاود الهجوم بقبضة

طائشة انتزع خصلة من شعرها. بالمنفضة رطمتْ صدغه ، بصق الدم فتدلت من فمه سنة وتأرجحت. بلكمة سقطتْ القطنة من فوق شفتها فبان الشرم . بكل قوتها صفعته صفعة رجَّه ، طال بلوزتها فمزقها ، دارتْ عرى صدرها بيديها ، فأمسك بالحمَّالة لكنها راغتْ . إذ ذاك قبض على طرف جوبتها ورفعها . بانت ركبتاها فابتسم . مُخنثاً مُجرَّحاً ابتسم . ليس بينه وبين مبتغاه إلا اليسير الضئيل ..هذا ما طمأن به نفسه . لكنها فاجأته بضربة بين فخذيه وجرتْ صوب الباب. تشبث بإحدى ساقيها يستوقفها ، ضربته بالقدم الأخرى ولم تتوقف . فقط انخلعتْ فردة حذاء فى يديه ، رماها بها وكان الأقرب إلى الباب فحال بينها وبينه . هذه حال لا تسر . لو تطلب الأمر سيخرج الطبنجة .

البلوكامين بالخارج يحترق . لماذا هذه المرة ؟ ..لماذا بكل هذه القدر من الاهتمام ؟ .. سيفعلها ويكسر الباب المتربس . لكنه الآن مشغول بسويتش النيابة . حلف العامل " والله العظيم قلت للاثنين . والله العظيم قلت لهم كل اللى انت قولتهولى .. والله كل واحد قال لى طيب " وفى الداخل وقفا متواجهين . هو مسنداً ظهره إلى الباب وهى وسط ركام الغرفة . يداها فوق ثدييها ، وبعض مزق من البلوزة. سنته المدلاة تزيده بشاعة وتزيدها قوة . تقدمت فألصق ظهره أكثر بالباب . مَدَّ ذراعيه ليصرعها ، لكنها تقدمت نحوه . نظرتْ إلى ما بين فخذيه فانتبه إلى أنها قد تعيد الكرة مَدَّ كفاً ليحمى المنطقة فانتهزتها فرصة ولكمته فى فمه . فى السنَّة المعلقة . انغرست بالشفة العلوية وشرمتها " واحدة بواحدة ". مالت قليلاً فمال هو أيضاً .من فورها جذبته من شعر رأسه لينهبد بكل جسمه على الأرض ضربته بقدميها وسحبته إلى وسط الغرفة ، عدَّلت وجهه

المائل إلى الأرض . جعلته فى مواجهتها بالتمام ثـم كورتْ بصقة الصقتها بين عينيه .

خطتْ من فوقـه ، وبكل ما بها من عـزم فتحتْ التـرباس. تواجهتْ هى والبلوكامين عبد العال الذى انتفض . كـادتْ تنهار. راعة حالها فأفسح لها الطريق. هَمّ حارس الباب بإيقافها ، فأشار إليـه أن اتركها فتركها ، فيما جاء وكيل النيـابة وكاتبه . بخطى مسـتقيمة اتجـها صوب البلوكامـين عبد العال وسـألاه عن اليوزباشى زفت الطين. بهدوء أصلح البـيريه وتقدمهـما إلى الباب المفتوح .

تراشقـــــــات

السمـاء صحو ، زرقـاء صافيـة . من البعيـد تأتى أصوات التراشـقات المتـبادلة . ننظر إلى انعكـاس صورنا فى الماء فـتجـعدها أنفاسـنا ، ثم ما تلبث أن تلتم لتعود فـتتمدد ، وفى الأسفل منها الأحجـار ، بيضاء ساكنة ، وثم سمكات ضئيلة الحجم تهتز فى مواجهتنا،فيما ظل هو راقداً فى القاع ، وعلى وجـهه انطبـعتْ الشمـس التى تحـمم بهـا كثيـراً . عيـناه مفـتوحـتان باتساعهمـا ، وشفتاه منطبقتـان على ابتسامة صماء ، شـاردة غسلتْ. المياه آثار المطاردة وحمرة الدم ، عدا بقايا خفـيفة ظلت تحف بشراشيب الثقب المهدب. نرى فـقاقيع الهواء إذ تصّاعـد من داخل الثقب فتهتـز الشراشيب محمرة الأهداب ، وتهتز .

نهتف :

- هى الحياة تدب فيه .. هو حى ...هو حى ..

غير أن ثعـبانا مائياً يأتى من ناحية قـدميه الحافيتـين ويلتف حول عنقه ، ثم يمر من أمام عينيه المفتوحتين ، ويعبرهما إلى البندقية الملقاة إلى جوار كفه المفرودة باتساعها . يدور حولها ثم يدخل الماسور ويسكن بداخلها.

تقول كُبرانا :

- هو أبونا .. تمعنا فى خبرة الحياة إذ ترتسم على وجهه.

وتقول الوسطى :

- هو أخونا .. تأملا العزم الذى تنطق به ملامحه .

وأقول أنا :

- بل هو ابنى .. أنظرا كم هو جميل وحالم .

وجاءت سمكة . دارت حول وجهه والصقت فمها بالشفتين الباسمتين،فلم ندر هل تلتقط شيئاً أم تُقبّله . ضربت بزعانفها الماء فامتط الوجه وتعرج ثم عاد والتم . ظنناها قد عادتْ من حيث أتت ، لكنها اتجهت إلى الصدر ومست الشراشيب ومن الثقب المهدب انزلقت إلى داخله فاهتز الصدر والبطن لكن وجهه ظل على ما هو عليه ، وظلت شفتاه منطبقتين على ذات الإبتسامة الصماء الشاردة ، ولم تتحرك كفه المفرودة على اتساعها بجوار البندقية .

بكينا وقلنا :

- لا يمكن أن نتركه هكذا .. فلنرفعه وندفنه بما يليق . شمرنا أكمامنا وذيول جلابيبنا وهبطنا إلى ماء البحيرة .

لكن أقدامنا عكرتْ الماء فلم نره . دلينا رؤوسنا حتى ابتلّتْ ضفائرنا وخضنا فى الماء بكامل ملابسنا فلن نره . تخطفنا القاع المعكر بقبضاتنا دون أن نلمسه . أخذنا الهوس فرحنا نضرب الماء من أسفل ومن أعلى ، نرتمى فوق عكارة القاع ونجوس بين الطحالب ، نحفر ونزحف ونتقلب دون أن نجده . فى وقت واحد خرجنا إلى الحافة مبلولات ، شعثاوات ، تهزنا ارتجافات البرودة والحسرة ، ومن عيوننا انهمرت الدموع حارة ملتهبة إلى أن صفا الماء ، فرأيناه ثانية راقداً فى القاع ، وعلى وجهه انطبعت الشمس التى تحمم بها كثيراً ، ومن البعيد ظلت أصوات التراشقات تأتينا عالية مفزعة .

نـــــورانيـــة

عجباً لهذه الفتاة ، أهى كائن أثيرى لا نعرف كنهه ؟.. أم هى ملاك تجسد فى هذا البدن الرائق المتسق ، المشع بهاء ورونقا ؟ .. إنها كعهدها فى فرحة غامرة . تمسح على رؤوس الأطفال وتزيل عنها الأوساخ وتأخذ بأيديهم إذ يتقافزون فوق أكوام القاذورات ومياه الطفح . تعالج جروحهم وتطهر ثآليلهم وتجبر الكسور والخواطر .. تُسَرِّى عن المتزاحمات حول حنفية المياه وتساعدهن على حمل الصفائح.تحمل عن العجائز مشتراوتهن، وتقضى للكهول حوائجهم ، إنها تكاد تضئ ظلام الحارة بحضورها ، والرجال كل الرجال يُغضون من أبصارهم إذ يرونها ثمة موسيقى سماوية تتجاوب بين البيوت المتصدعة وتلف هذه الكوكبة من ذوى الأسمال المشرئبين بأعناقهم باتجاه الهالة التى تحيط بها . أما ترى ؟ .. لقد هدأت الأتربة وضاعتْ رائحة العطن ، وتعطر الجو بذلك الأريج الجميل خفى المصدر . هاهم يتلاحمون فى ألفة ويمشون خلفها خفافاً أصفياء ، يقتربون من حدود الحارة ولا يجرؤون على التقدم ، لعلمهم أنها ستقف فوق ذلك الكوم من الحجارة ، حيث نفايات المدينة .. هناك .. فلا يقابلها سوى الصحراء والجبل وشجيرات الصبار . ستلوح لهم فيلوحون لها ، وإن هى إلا ومضة ثم تنطلق إلى أعلى وتذوب بين النجوم ، وإذ يشرئبون بأعناقهم ويشخصون بأبصارهم، يتمنون صادقين أن تعود إليهم فى الصباح ، كعادتها معهم .

إمـــــرأة بذيـــــل

جاء القطار ولفظها . سوداء فحلة . لهـا أنف أفطس وشفتان غليظتان ، صدرها ثقيل وعجيزتها عريضـة . هامتْ فى الشوراع فتلقفها تاجر . قال: " الدنيا شتـا وهذه الجائعة سوداء .. أطعـمها وأدفئ بها فراشـى فترم عظمى وتمص منى الرطوبة".

فى الصباح رماها وأغلق الباب .

فى مجلس التجار قال : " فتحتُ لهـا الحمام لتنظيف نفسها ، وإذ تخلع ثوبها ولباسها الداخلى رأيتُ ما لم أصدقه " .

سألوه : " مـاذا رأيت ؟" . قال :" كـان لها ذيل ". هتـفوا : " ذيل ؟ ! .. إمرأة بذيل ؟! " . قال : " نعم .. إمرأة بذيل .. ذيل ملفوف أملس وله ذؤابة من شعر " .

قال المـدرس : " هذه إمرأة مـسكينة .. آخذها تنظف لى البيت وترتب كـراريس الأولاد .. تطبخ لى وأؤا كلـهـا ، وفى الليل أدفن فـيـهـا غُلمـتى واستريح ".

رآه واحد من مجلس التجـار فأشار له أن اتركها وتعال. استـمهلها أمام مدخل العـمارة وذهب يستطلع ما يـريد . قال له التاجر : " احـذر .. زميلنا أكد أن لهذه السـوداء ذيلاً وحافرين ". قـفز قلب المدرس إلى حلقه فَغص. نظر إلى فحولتها إذ تسد المدخل وخايلـته تلك التنيات فوق ردفيها وتنهد:

"ياه .. ياله من ذيل طويل " ثم أدار ظهره ومشى إلى حيث اختفى .

فى الفصل حكى لتلاميذه عن تلك المخلوقة السوداء التى كادتْ تغويه ، لولا أن حماه الله وقيض له من أخبره بأمر ذيلها وحافريها والقرنين اللذين تخفيهما تحت قرطتها ".

قال الشيخ : " هذه المرأة لا عائل لها . فحولتها قد تغوى من فى صدره نزغ ، وجوعها قد يقودها إلى الرذيلة .. آخذها تفرش الحصير فى مصلى النساء ، وتقوم عليه عناية وحراسة ، فذلك أطهر وأقوم " .

رآه أحد مريديه يهم بمخاطبتها فهتف به : " أيا شيخ ". جاءه الشيخ فحكى له عن ابنه عن ربيب له عن أستاذه أنه قال : " رأيت فى شوارع المدينة إمرأة سوداء فحلة ، لها أنف أفطس وشفتان غليظتان صدرها ثقيل وعجيزتها عريضة ، لكنها تخفى ذيل خنزير وساقى عنزة وقرنى ثور " .

تفل الشيخ وعذبل وسحب مريده واحتميا بالمسجد ، صاح فى مرتاديه: " الشيطان يعربد فى شوارعنا..حل فى جسد إمرأة سوداء فحلة فاحذروها، لأنكم إن تحذروها تحذروه " .

قال الضابط لعسكر الأورطة :" الهمة يا أشاوس ..الشيخ يستهزئ بنا . شواربكم افتلوها . صدوركم انفخوها . إن قلت اهجموا فاهجموا .. وإن قلتُ اضربوا فاضربوا ، لا تخافوا ، فما الشيطان إلا مخلوق مثلكم . هيا .. احملوا خياتكم واتبعونى " .

تحلقها رهطٌ كثيف من الناس ، وتداخلت الآيات المنجيات برجمات الحصى. مرتجفاً أشار الضابط ، فألقيت أكثر من خَيَّة . مغمض العينين

هتف " شدوا " بأصابع مرتعشة شدوا . نفثة واحدة ويحترق الجميع . هذا هو المؤكد . لكن الخيّات ضاقت . أطبقت على الرقبة والصدر والوسط . اختلج الضابط وزأرة الأسد الهصور : " اهجموا " ، فانطلقت من أحدهم صيحة الاستشهاد ورمى بنفسه عليها. تشجع الآخرون وجاوبوه بالصياح والارتماء فسقطت وسقطوا فوقها وثار غبار . صرخ الضابط : ؛ انزعوا القرطة .. اسحبوا اللباس .. مزقوا الجورب " . ما أن طارت هذه الأشياء حتى تسمر الجميع. عبونهم مدسوسة فى السواد المقيد والعجيزة العارية .

تقدم الضابط والشيخ ومن ورائهما المريد والمدرس. وقفوا بين فخذيها وتبادلوا النظر ، أما التاجر فقد اختفى قبل أن ينالوه بسوء. طحن الضابط غمغمة بين أضراسه ثم صاح بأعلى صوته:"كذب التاجر"

عندئذ ، علا صفير القطار . من فورها نهضتْ المرأة السوداء . نفَّضتْ نفسها . والتقطت أشياءها ، ومطأطئة الرأس اتجهت صوب المحطة ، وصعدت إلى القطار ،فيما هبطت من نفس العربة إمرأة سوداء فحلة ، لها أنف أفطس وشفتان غليظتان ، صدرها ثقيل وعجيزتها عريضة ، وعلى ردفيها تبين بوضوح ثنيات الذيل الملفوف تحت ملابسها .

صـوروها على هيئـة عجـوز شمطـاء . عَرّوها على الحـوائط ونمطوا جسمها ووجهها بالشعر . دسوا السجـائر ومباسم الشيشة فى فمها. رسمها المراهقون على أبواب دورات المـياه بثدىى إمرأة وعضـو رجل. أغروا بها الأطفال ، وصنع الكهول علـى هيئتها عرائس للـخز بالإبر والحرق بالنار . وهى لا تفعل أكثر من هز كتفيها . ترفع رأسها وتمشى غير مبالية ، قد تدفع أحدهم ، وقد تركله أو تشـتمه . لم يعد أحد من أهليهـا يجرؤ على المشى معهـا بعدما جعلها المـشايخ مادة لخطبهم . تنادوا عـبر المنابر : " احذروا هذه المرأة، إنهـا تؤلب علينا نساءنا ". قالت :" ولو .. " وصلتـها خطابات تهديد . اعترضها المتشددون بالمُدى والسكاكين ، خافتْ لكنها واصلتْ . قالت الشرطة : " أنت تـحت حمايتنا سنقبض على هؤلاء المـهووسين من خلالك ". إلا أن الرصـاصات بدأت تنقر حـوائط الأبنية التى تمر عليـها ، ولاحقتهـا قنابل بدائية وأخرى مسروقة من الجـيش . سقط أبرياء وامتلأت السـجون . قـالت الصحف : " لم يبق سـوى الهاون والآربى چى ومـدافع الميـدان ". لما نجتْ من الدمار الذى أصـاب بيتهـا ، واجهتهـا الشرطة :" فعلنا غاية ما تستطيع .. تراجـعى تهدأ الأمور " . لكنها قالتْ : " أبداً ". وما تزال البلد تشـقى بالحـركـة وبالدمـار ، بينمـا انزوتْ هى فى الغـرفـة التى وضعـوها فيهـا قسراً، لا تقـابل أحداً ولا يكلمهـا أحد . وبدأت شعـيرات خضراء تنبتُ فى ذقنها وفوق شفتيها .

البنت فى الثوب الاحمـر

البنت التى تَخُبُّ فى الثوب الأحمر وأيام المراهقة الأولى، وتجرى من كلمات أبناء الجيـران ، وتلملم فتحة صدرها إذا حادثت البـقال أو العلاَّف أو المكوجى ، وتقفل الشبـاك فى وجه التلميذ الذى يصفر لهـا من العمارة المـقابلة، وتسـحب طرف ثوبهـا إلى مـا بعد ركـبتـهـا إذا ما دعـاها أبواها للجلوس مع الضيوف . إنها البنت التى تقف أمـام المرآة وتنظر إلى وجهها من هذه الناحيـة ، ثم من هذه الناحية ، تنكش شعـرها ثم تعيده فورمـة كما كـان ، أو ترسله إلى كتـفهـا ، أو تربطه بشـريط ، هذه البنت التى تحتـضن حقيبتها ، وتتمـخطر فى غدوها ورواحها من وإلى المدرسة، وبالكاد بدأت تبحث عن القمـر فوق السطوح ، هى هى ذات البنت التى اقتحـمت حشود المظاهرة وهوت فى الفـراغ الفـاصل بين بنادق الجند والوجـوه الغـاضبـة لمجرد أنها أرادت العودة إلى بيتهـا الذى استند الضباط إلى جدرانه ، حتى لا يتهمها أبواها بالتلكؤ واللعب مع الصبيان .

ريـــــاح

كالريح العاصفة تأتيهن فتدوم المكان . تَقْلب ما استقر فيه وتمضى، وهن منكسرات وذاهلات عن أمور كثيرة . يستمعن إليها إذ تزوم وتسب وتشير إلى مواطن الانكسار فيهن، فى كل مرة يتمنين ألا تتركهن وتمضى ، لكنها دائماً تُلقى بحصياتها وتمضي .. يثقن الآن أن شيئاً فيها لا ينكسر ، وأن عينيها حين ترفعهما ترتفعان ، وحين تثبتهما تثبتان ، وأنها تشير باتجاه الرمال فتطير، وباتجاه البحر فيفيض ، وباتجاه الرجال فيركعون ويزحفون . فكرن فى القيود التى تشدهن إلى قضبان الأسرة وأبواب المطابخ ، وقلن : " ليست ثقيلة هذه القيود ،وليست منيعة هاتيك القضبان " . هذه المرة رأينها فنزعن عنهن القيود وحطمن القضبان وتحولن إلى رياح عواصف ، ورُحن يدومن معها فى أماكن أخرى ، يقلبن ما استقر ويمضين .

لا

فارقتْ زوجها لأنها أحبتْ الشعر.

وتشردتْ من كل عمل لأنها فى كل مرة تكتشفهم .

وأصابها الهزال لأنها لم تأكل من عرق فخذيها .

وجُزّتْ راسُها لأنها مشت مع الذين جاهروا بقولة " لا " .

التهـــــاب

اقْـتـربْ ، فالليل ثقيل ، والشبابيـك مغلقة ، والنسـاء من فرط خـوفهن شـددن الرجال والأولاد وللذن بـأسرّتهن. أقـرأ فى عـينيك لوعـة الحرمـان فـاقـتـربْ وتعـال نقطع الطرقـات الخـاليـة إلا من الحجارة ونـثار زجـاج الفـاترينات. لا تلمس تنورتي فيلحظك ذلك الجندى المُسَهّد على قـارعة الطريق هناك ، كأن رأسه مُرَكّب على زنبرك يستند إلى العامـود الخرسانى وينظر فى الاتجاهين .

إهدأ ، فـقط دعنى المس كـفك ، إلمس أنت أيضـا كـفى ، وسـرْ إلى جوارى تحت المـصابيح المهـشمة ، ووسط هشـيم النهار. ارفع رأسك أو اخفضها ، فسيـان لدى أى مراقـب يلحظنا الآن رفعك لها أو تنكيسك إياها .. فأنت تنظر للسماء تسـتمطرها الإجابات أو أنت تبحث فى الركام أسفل قدميك عما عساه ينفع . من يجرؤ على الظن الآن أننا نتخالس المتعة ؟ ..

كل شئ هادئ والأدخنة الحارقة للجـفون تلاشت فى هذا الشارع . ثمة عيون تنظر إلينـا ، أشعر بوخزاتها فـوق جسمى . انظر . خيـالاتهم تتماوج من وراء خصـاص الشبـابيك . ربما اتهـمونا بالجنون . أيا كـانت ظنونهم تعال نمـشى تحت البواكى لئلا يُـحلقوا فيـنا ، فأنت بلهفـتك تكشفنا . لا تتعجل واهبط بكفك إلى كفى . لا بأس من أن نتضام بالأصابع ، قد تكون أصابعى باردة الآن لكنها ستلهبك بعـد قليل . تعال نؤرجحها . لنجر بنزق تمهل فلجرينا صوت .

لا تلتصق بى . فقط ضع كفك فى كفى ودعنا نمشى. أنظر إلى تلك القطة التى تمشى عند آخر الرصيف ، أى شئ تجر ؟ .. قلتُ لك اخفض ذراعك . أنظر ، هاهى رصاصة خَزَّتْ عين المطرب المعلق على الحائط وأسالت التراب الأحمر فوق خده الذى طالما خايلنى وخايل البنات . من الأفضل أن نلوذ بهذه العطفة ونمشى بين الجدران المثقلة بالشعارات . هذه العطفة ستسلمنا إلى الشارع العريض . إن عبرناه أصبحنا أمام أول بيوت حينا. ثلاثة أزقة من هناك ونصبح فى بيتى . فى بيتى سأتركك تفعل ما تشاء، بل سأخرج منك أنا ما أشاء، فاصبر. انصتْ . هذه أصوات أحذيتهم . إنها مشيتهم المنتظمة. أعرفها من ألف مشية ، لا تنظر خلفك ، وإلا استرابوا فينا ، فلنمش كما نحن . لا تضطرب. هاهى أصوات أحذيتهم تختفى . بالتأكيد ابتلعتهم التقاطعات الكثيرة التى خلفنا. لا .. لا ترطم الكيزان والأخشاب فليس هذا وقت الفرح ، هذا خطأ ، فقد اقتربنا من الشارع العريض، فقط هيئ نفسك .

ماذا جرى للشارع ؟ .. لأول مرة أراه معتماً إلى هذا الحد. أنا أحب العتمة ، لكن ليس بهذا الشكل ، ليس إلى هذه الدرجة. المصابيح محطمة وهم على ما يبدو قد سحبوا الكهرباء . زورى يحرقنى وعيناى أيضا. كانوا هنا بالتأكيد. دقق . أليست عرباتهم تلك المتقاطرة فى الناحية الأخرى ؟ نعم .. إنهم يدفسون فيها رؤوسا وأجساداً ،فتوقف حتى يغوروا . تبدو خائفا. أصابعك توقفت عن العبث ، لا عليك . أنا أيضا خائفة . من لا يعرف طعم الخوف ، لا يعرف معنى الشجاعة ، سأنسيك همومك عندما نصل . آه ، عرفت ، القطة كانت تجر رباطاً مدمماً .نعم ، ما كانت تجره هو رباط مدمم . أنا متأكدة .

اسمعنى . هات هذا الكيس البلاستيكى المرمى إلى جوارك قبل أن تطيره الريح ، سأريك كيف يمكن أن نمر دون أن نثير ريبهم ، لو خلعت السويتر ودسسته فى الكيس هكذا فإن الحيلة ستنطلى عليهم . خذ . احمله ودعنى أتعلق بذراعك وهيابنا ، سيظنون أننا كنا نتسوق . لاتغرز كوعك فى ثديي وانظر كيف يلقون بهم فى العربات، ما أكثر المكدمين والمهشمين . لا تُظهر اهتمامك . لا تظهر ألمك وهيا. هانحن على قيد خطوات من بيتى، فهات الكيس ودعنى اسبقك . امش خلفى باحتشام ، ثلاثة أزقة وننتهى مما نحن فيه .

لؤلؤ المآقي تهشمه اقدام القساة

١- قلـــــب
٢- قـــــرار
٣- دم ثخـــين
٤- حمـــــق
٥- أم السعـــد
٦- ضحـــــك
٧- خيـــــة

قـــــلب

رفعتْ رأسها ونظرتْ إليه فتوقف . إلى جوار الباب تسمر. منكس الرأس مهزوماً . احتوته بعينيها ، من شعر رأسه حتى أظافر قدميه ، وهو فى مكانه لا يريم ، عصبتْ رأسها وسألته عما جاء به ،وما إذا كانت اللبؤة التى خطفته قد شبعتْ منه ، وأشارتْ إلى كومة الدواء فوق الكومودينو وسألته عما إذا كان يتذكر أن له أما تموت فى اليوم والليلة ألف مرة . تقدم وانحنى على كفها فسحبته ليلثم الهواء ، ذَكَّرَتْهُ بما كان عندما طلبه أبوه وهو يموت فلم يحضر ، وبالمنديل الذى صَرَّتْهُ على معاشه وتحويشة العمر فسرقه ، انكفأ على قدميها فتراجعت بجسمها كله حتى مسند الكنبة . قالتْ أنها تعرف عنه كل شئ ، وتعرف أنه أصبح سكيرا ولصا وشماماً ، تنبأت له بأن مصيره سيكون سبرسجياً أو قواداً ، وأنه سيموت ميتة الكلاب ، بلا أنيس أو ونيس .صرخ ملتاعاً :" سامحينى يا أمه " ، فزمتْ الشال حول رقبتها واتجهت صوب القبلة .. " قلبى غضبان عليك ليوم القيامة " . ثم رفعته من قميصه " قُمْ .. فزْ .. الأكل هناك فى المطبخ ، والبيجامة وراء الباب "، فقام وهو يُقر بأنها صاحبة أطيب قلب فى الوجود .

قـــــرار

ما عادت ترغب فى رؤية وجهها الذى نقرته سوسة الزمن فهرم وشاخ. كل ما حولنا أيضا شاخ . المرآة شُرختْ ، ومصاريع النوافذ صدئتْ ، والستائر والسجاجيد أكلتها العتة ، حتى جرس الباب أصابه الخرس ، فلم يعد أحد يفكر فى زيارتها. والأولاد لا يأتون إلا للاعتذار، قد يقبلونها وقد لا يُقبِّلون ، لكنهم فى كل مرة يهرولون إلى بيوتهم .. هناك حيث ضجيج الصغار ودفء الصحبة . قالتْ : سأنتحر ، واستعرضت طرق الانتحار حسبما أسعفتها ذاكرتها . كلها طرق بشعة ومؤلمة.كيف يجرؤون؟.. هؤلاء المنتحرون كيف تهون عليهم أنفسهم؟ .. هكذا تمتمت لنفسها فى المرآة . تأملتْ شفتيها المشققتين ثم غادرتها وجلستْ فى مواجهة الباب ، فلربما جاء أحد أولادها وضغط الجرس .

دم ثخين

(١)

هى فى المستشفى ، وهو ملقى إلى جوارها . تفصل بينهما الخراطيم والمعاطف وأجهزة القياس والعربة المكدسة بالمشارط والملاقط . استسلمت لوخزة الإبرة، ورأت دمها يسيل ثخيناً فى الخرطوم ويصل إليه . فى أنفه دُس خرطوم ، ومن جنبه خرج خرطوم ، وفى ذراعيه عُلقت خراطيم ، وعلى صدره ثبتتْ أسلاك لا حصر لها. كتمتْ كل ما فى صدرها وأغلقتْ منافذ دموعها لم تفعل أكثر من أنها أغمضتْ عينيها عليه وتنهدتْ بعمق

(٢)

قالت صور الأشعة الكلى متهتكة ،وقال ذوو المعاطف نحتاج لمتبرع. بهدوء وقعت لهم. وإذ تخرج به متكئاً على كتفيها نبهوا . أكل خاص وشرب خاص وهواء خاص. الانتكاسات تقتله ، والإهمال يميته.

(٣)

هو الآن يمضى فى حيانه ، وهى ملقية فى فراشها ، رائحة النوشادر تملأ المكان والقروح تلهب ظهرها . تأتيها الجارات فيفتحن النوافذ. يقلبنها ويغسلن لها . يلملمن الخرق الملوثة من تحتها ويدمسن اللقيمات المهروسة فى فمها . يعطينها الدواء الذى اشترينه لها . يسوين الأغطية ويكنسن التراب ، وهى أبداً قابضة على ألبوم صوره، وقد يحدث أن تفتحه وتقول هذا الولد ابنى .

حمـــق

ليست سوى أم . لها وجه متعب ومعها قليل من الذهب. يلتف حولها خمسة من الأولاد . يحاصرونها فى البيت . فوق رأسها يقفون . فى مواجهتها يجلسون . عيونهم على الذهب فى رسغيها وعلى صدرها. تفهمهم من حركاتهم إذ يتكاسالون أو يندفعون ، من تهدج أصواتهم وهم يتهامسون، فيها رعشات تكشفهم ، يتعاتبون فترتفع أصواتهم ، تلتفت إليهم فيصمتون .يتوددون إليها ولا ينسون تحسس الأساور ، فى غفلة منهم خرجتْ ، وحيدة تمشى الآن بين البيوت . ترتاد الأسواق المفتوحة والمغلقة. ما أكثر أسواق مدينة نصف المليون . نصف مليون من الحمقى القساة . ما أثقل خطوها . بشجاعة وصرامة تمشى . التواءات المفاصل تؤرجحها. تخلع كعبيها خلعاً من بلاط الرصيف . تحاذر السقوط ولا تُظهر ضعفها. لا تفعل أكثر من أن تمشى . لا تعرف لها وجهة بعينها باللحمقى . ألا يوجد فى البلد كلها واحد ، واحد فقط، مجرد واحد ، يجرؤ على سرقة هذا الذهب ؟ .. يسرقة ويريحها من عيون الخمسة الذين يحصون عليها أنفاسها. ياه .. ليست سوى أم .. مجرد أم فى مدينة بها نصف مليون أحمق .. لماذا يا رب كلهم من الحمقى .. لماذا ؟

أم السعـــــد

قد تخـوض " أم السعد" فـى الوحل أو تستحم بالمطـر . مع العواصف نراها ، وفى وقدة الحـر لا نفتـقدها . مهلهلة الثياب هذا صـحيح . حافـية القدمـين هذا حقـيقى . أيا ما كـان الأمر وكيـفما كـان فهى مـوجودة . هذا يكفى . يكفـينا . نعطيهـا السـريس فـتأخـذه ، الجعـضيض فـلا تأنف منه ، يعجبنا هذا فيها فنمنحها الأرز والطحين ، وقد نمن عليها بهبر اللحم ، كل ما نسمح به تأخذه ، تأخذه وتمضى .

فى بيت بلا سـقف تعـيش ، تنفخ فـى الكانون الذى لا نعـرف من أين جاءها وتعـمل الشاى ، ربما سلقتْ الأرز أو خـبزت العجين أو شـوتْ ما تكون قـد أعطيناها إياه من سـمك أو حبـات بطاطا ، لكنهـا لا تمل فى أى وقت من اشعال الكانون لعـمل الشاى ، تشربه من الفنجال مقـشوف الشفة أو من الكوز المهبب مـباشرة ، تُعيد غلى التفل. تمـصه وتضعه على أورام عينيـها وقدمـيها . إذا ما شـحت المحاصـيل وأصبح الحصـول على حفنة شعيـر أو كوز ذرة ، مجرد كوز ذرة ، أمـراً مستحيـلاً ، تلف هلاهيلها على جسـمهـا وتقبع بجـوار الكانون وتقول " وإيه يعنى ؟" ، لكنهـا لا تكل من التطواف علينا ، وتسـألنا جهـاراً نهاراً ، مـزرقة الوجـه محـمرة العينين أن نعطيها تلقيمة شاى " ومش مهم السكر ".

الأمـر الآن مـخـتلف . كل شئ الآن مـخـتلف ، فـالعيـال ركـبـوا

الموتوسيكلات وفصموا الكتاكيت وكسروا ساقى أم السعد. هذه حقيقة. وماذا يمكن أن يحدث وقد أصبح لدينا ميكانيكى يؤجرها، وجنيهات ندفعها من جيوبنا لتطيير الريش وإفزاع البقر والجاموس والماعز وأم السعد.

أخذنا الشيخ غالب المجبراتى وذهبنا إليها . أعطيناها الأرز والطحين وهبر اللحم ، وضعنا أمامها تلقيمات الشاى وقوالب السكر . بأيدينا أشعلنا الكانون وغسلنا الفنجال المشقوق والكوز المهبب وكنستْ نسوتنا البيت الذى بلا سقف ، إلا أننا فى الوقت الذى عرفنا فيه أن كسورها أكبر من جبائر الشيخ غالب اكتشفنا أن منظرها بشع ومرعب . لتكن صادقين ، اختلاط روائح العرق والصنة والعفونة التى تحيط بها هو الذى روعنا ، تقيأنا وطلبنا من النسوان تنظيفها إلا أنهن لم يقدرن ،واحدة منهن لم تقدر، فاكتفينا بتكليف العيال بتوصيل الأرز والطحين والهبر . ولأن عيالنا مهوسون بالميكانيكى وهدير موتوسيكلاته ، فقد دأبوا على التملص منا ، ومرة فأخرى اعتدنا أن يأتينا صوتها الزاعق عبر البيت مهدم السقف " تلقيمة شاى يا أولاد الكلب " . ولم نكن لنجرؤ على توبيخ العيال .

ضـــــحك

وإذ تتضاحك هى وابنتها حول توافه الأمور، لاحتْ منها نظرة إلى المرآة، فمالتْ برأسها ونظرتْ باهتمام. مدت يدها إلى تعصيبة رأسها وأخرجت خصلتين أوثلاث .. " ياه كل ده بياض وهيش ؟". توقفت ابنتها عن الضحك وراقبتها وهى تتحسس خديها المهدلين وكرمشات عينيها . لم ترها من قبل تفعل هذا ، فكرت :" بأى شئ يمكن أن أشغلها ؟.. بأى حيلة يمكن أن أبعدها عن المرآة ؟".. لكنها فاجأتها بأنْ سحبتْ الفوطة وهرولتْ باتجاه الحمام .

لم تغبْ . ربع الساعة فقط . الربع أو أقل قليلاً ،بعدها خرجت. إلى غرفتها جرتْ ، وأمام الدولاب وقفتْ .استدعتْ ابنتها التى كانت قد لحقت بها ، واستندت إلى الباب ترمقها ، سألتها أى الفساتين أجمل . فرحتْ البنت وزغردت ، مشطت لها شعرها ووضعتْ فيه فيونكة . جرتْ إلى غرفتها وعادتْ باصبع الروج ،بينما انثنتْ هى إلى درجها وأخرجت الجورب المزركش بتاع زمان ." تجننى يا أمى .. تهبلى " ، " يعنى مخ أبوك حايتلحس ؟" ، " ودى فيها كلام ؟ .. دانت قمر أربعتا شر " .

جاء الأب ، فى البداية جفل وتراجع ، ثم بش ورحب ،وبأقصى ما يملكه من لباقة أشار إلى ابنته أن تنادى أمها لتقابل" الست". خففت البنت على نفسها واحتمت بالباب المجاور وراحت تضحك . أماهى فقد ظلت

خشخشة الضحك تصهلل فى صدرها وتطلب المزيد. قال " أهلا"، وقال " شرفت " ، وسأل :" حضرتك مين ؟ " . ولما لم تتمالك نفسها ، وفجّر عفريت الضحك صدرها وحنجرتها ونطط ابنتها ورماها على قفاها فراحت تخبط على رجليها وصدرها وتضحك ، عرف أنها هى . هى التى عاش معها أربعين عاما أو يزيد ، فاندفع نحوها وأشبعها لطماً وركلاً ، وجاء بدورق ماء وصبه فوق رأسها.

خـــيبـــة

مثل برغـوث البحر أمى . ضئيلة مقوسـة الظهر ولها شوارب . الشـعر يهبط من فوديها وينام فوق شفتيهـا. يطل من أذنيها وينفر من فتحتى أنفها . حتى سـلاميات أصـابعها بهـا شعر ، يزرق لـحمهـا فى الشتاء ويحـمر فى الصـيف. كيف حـملتْ بى ؟ .. كيـف أرضعـتنى ؟.. سؤلان توقـفتُ عن طرحهما من زمن ، إذا فكرتُ فيها واستـعدت ضآلة جسمها أخذتنى زهوة الحياة ،فـأنسى حزنى ، وأفتح صدرى ، وأواجـه ما ينبغى علىّ مواجـهته . مشكلتى أن فراغات شاسعة تفـصل بين وبين شواطئها، ولا أعرف لماذا لم أحاول طوال السنوات الماضـية توجيه مجاديفى إلى مـرفأها. لا أعرف هل هناك خيبة أكثر من هذا ؟

ظـــلال تتهـــدل على حـــواف البـــياض

١- القطـــــيع
٢- مسامـــــرة
٣- تأجـــــيل
٤- تعـــــاون
٥- " وإيه الضرر يعنى ؟"
٦- أيتها البنت الجميلة:
لماذا طفوك هكذا ؟
٧- احتضـــــار

القطـــــيع

ترقبهن

سينبثقن الآن من ورا تلك البناية . هناك . تلك الواقعة فى المنطقة الجرداء ، بين شجيرات الخروع ومساحات النجيل اليابس ، نعم . البناية كثيرة النوافذ ، قليلة الأبواب، سينبثقن ثم يتكورن ويتجمعن كغيمات الأعاصير ، هاهن ، انظر ، إنهن يمشين حافيات ، منكوشات الشعر ، متزاحمات. باتجاهنا يمشين فقف مكانك . لا تُظهر لهن علامات الخوف ولا تفرش هذه الابتسامة وتمالك . قد ترى منابت الاثداء أو هالات الحلمات أو سُمرة وبياض الأفخاذ ،فلا تلهث أو تُمن نفسك باشباع رغبات لن تتحقق. انظر إلى تلك التى تصرخ فيهن ، تلك التى تُحرك يديها فى كل اتجاه . إنها الوحيدة التى يمكن التفاهم معها ، سيقتربن الآن فتماسك واقبض بقوة على أوراقك . كن لا مبالياً تسلم . سترى انفعالات الوجوه والأعين الذاهلة .نعم . ستدميك - وقد تصيبك بالقرف - الخدوش والندوب وخيوط المخاط المتناثرة على صفحات الخدود ، وقلبك سينفطر بسبب الكدمات والجروح المقيحة عند الأكتاف والأرساغ وسمانات الأرجل ، لكن لا تهتز . ستسمع أصوات المراجل إذ تغلى ، وقد تسمع غنجات أو شهقات أو قهقهات فلا تتوتر ، قد تُعرض عليك آباط ريانة وأخرى نتنة ، ربما تُشق لك قمصان عن نهود بيضاء كاللبن أو سمراء

كالشيكولاته فتماسك . قد تُشمم أو تُصفع أو تُلقى بحصاة فلا تفعل شيئاً وقف حتى يعبرن. إنهن ذاهبات إلى ذلك المبنى. ذلك الوطئ ذى الباب الواحد حيث شجيرات الكافور . التى لم تتسامق بعد ، تسوقهن تلك التى تصرخ دوماً وتعبر بهن النافورة المهملة وتقف بهن أمام الباب . هناك سيتبادلون الغمز واللمز واللكز ، ويكثرن من هرش أقفيتهن قبل أن يغيبهن الباب ، الواحدة منهن إثر الأخرى .. زُرافات منهن سيهربن ويجرين راجعات القهقرى .. قد يسقطن فى النافورة وقد يتفادينها ، فتصرخ فيهن تلك المرأة وتعيدهن صاغرات طائعات ، ولا يفاجئنك ضراط المتغوطات أمام الباب ، فالمرأة المسيطرة سترفعهن من أقفيتهن وتأمرهن بحمل الخراء ودفنه أسفل شجيرات الكافور. لحظتها ستقبض بكفيك على أمعائك ولن تشعر بأى متعة وأنت ترى مؤخراتهن العارية وقد اختلطت بالأصفر والبنى وزرقة الكدمات المتورمة. ربما أفلحت فى السيطرة على نفسك ، وربما أفرغت ما فى بطنك ، وأيا ما حدث احذر أن يشعرن بأنك خائف أو متوجس أو مستهزئ سيهجمن عليك ساعتها ويمزقن ملابسك ويطيرن أوراقك ويتصارعن على أطرافك ، وقد ترى كفيك وقد دُسَّا رغماً عنك بين فخذين، ورأسك مهصوراً بين عدة سواعد وزنود كنت تظنها بضة ورخصة، بينما تأخذ الأظافر فى خمش وجهك فيما تجاهد إحداهن لأن تدس إصبعين فى عينيك ، متحشرجاً ستنادى على المرأة الصارخة لكنها لن تأتيك فانتبه ، هاهن يقتربن ،وإن هى إلا لحظات ويُحطن بنا ونصبح فى وسطهن بالتمام فامسك بى واثبتْ .

مسامـــرة

دائمـا ما ينبـعث ذلك الصوت المـكتوم من خلف ذلك البـاب ، نفس الرنة. نفس البحـة نفس الحشرجـة . لا تبال بأولئك المتناثرين فى المـمر ، فلن يشعـروا بنا ، ادفع الباب وانظر ، ها هى منكـفئة على وجـهها. كـفاها تقبضان على مسند الفراش تعض بأسنانها على الوسادة.تلوك نتف القطن . تلفظها فتتطاير فى فراغ الغرفـة ، وتعلق بشعرها المهوش ، من هنا يمكنك أن ترى خديها النحيلين وقد تقاطعت فوقهـما خيوط زرقاء هائلة وذراعيها حيث تنفر العروق وتتعرج وأصـابعها إذ تتشنج على حديد المسند كم هى شاحبـة. مثوترة وضعـيفة .هاهى ذى ترفع عينيـها إلينا. انظر . إن ملامـحها ترق ، والخيـوط الزرقاء تضـيع ، وعينيـها تأخذان فـى الاتساع ، إن هى إلا لحظات حتى يشـرق وجهها ، وتتوقف الحـشرجات تماما. تـنفض شعرها وتسوى جلبابها وتهبط حافية إلى الأرض. تمـد ذراعيها الينا. تفتحهما ، لا تخف ، افتح لها ذراعيك وراقصها ستـجدها كاالنسيم بين يديك ، ستسمع أرق موسيـقى تخرج من بين شفـتيها، وتخـاصر أجمل بدن ، فراقـصها ثم أسلمـها إلى . كم هى وديعـة ورشيقـة ، تنسم ذلك الأريج الذى يعـبق جو الغرفـة ، هاهى تتحـول إلى فراشة مـفعـمة حيـوية وجمالاً . تـدور حوالينا وتلف حول نفسها وترف بجناحيهـا وتتمايل فى كل ناحية حذار لئلا تفلت منا وتحلق فـوق ذلك الضـوء المنسكـب من تلك الكوة العـاليـة فتـخرج وتضيع، مل عينيك من رقتهـا ومن شعرها إذ يتطاير ويلتف بجيدها ويندس

بين منبتى ثدييها ، هاهو الدفء يسرى فى الغرفة ، وائتلاق الضوء فى عينيها يأسرنا فندور بها ومعها سابحين فى فلك وجهها الصبوح ، والوهج المشع من كل ثنية من جسدها ،يالها من لحظات أثيرية ، ويالها من ملاك . أعلم أن نفسك تهفو للالتصاق بها والبقاء معها والذوبان فيها . نفسي تحدثنى بهذا أيضاً فهل أجزى منه ؟ ... لو توافق .. فقط توافق. لكن انتبه ، فهاهم قادمون ، اسمع جلبتهم فوق البلاطات المهشمة . سيأتون بمعاطفهم وعربتهم وأدواتهم المكهربة فاتركها سريعا وهيا بنا نهرب من الباب الموارب ، فى الغد سنأتيها ، فى نفس هذه الساعة من الليل سيدلنا إليها نفس الصوت المكتوم المتسرب من خلف الباب ووجوه المتناثرين فى الممر .

تأجـــيل

على امتداد الحجرة الواسعة تراها سائرة فى كل اتجاه. تحارُ وتجد نفسك مضطراً لأن تقف بالباب ولا تدخل . هاهى ذى تسير بمحازاة الحائط المواجه . خطواتها أقل سرعة وساعداها أقل تطويحا . تستدير فجأة تجاه الحائط وتأخذ فى ضربه ، لحظات وتستكين ، تمسح أثر ضرباتها ثم تلتصق به وتفرد ساعديها على اتساعهما ، ها أنتذا تُلجمك الدهشة وأنت تراها تُريح أحد خُديها إلي الحائط ، وتلمح - وأنت من مكمنك استدارة خدها الذى فى مواجهتك ، وقد انسكب عليه الضوء فتكتشف أنه فى نضارة خوخه ناضخة . ثمة ما يُفزعك فى الطريقة التى تغمض بها الجفن الذى إن فتحته لرأتك فى وقفتك المخزية ، لكنها لا تفتحه ، إنما تُشدد من التصاقها بالحائط وتند عنها تأوهات وغنجات تدفعك لأن تنسحب بهدوء مغلقاً الباب ومؤجلاً موعد الحقنة إلى وقتٍ تهدأ فيه .

تعـــــاون

حين رأته هكذا مرمياً على الفراش وملفوفاً بكل هذه الضمادات والجبائر ارتمت عليه واحتضنته ، قبضت على رأسه وضمتها إلى صدرها . مسحت على الشعيرات النافرة من الأربطة وجاهدت دموعها وهى تهدهده وتناغيه وتدعو له بطول البقاء وألا يُحرم أبناؤه منه . لمَّا اقتحمتْ الغرفة تلك الرائحة ، توقفت عن الهدهدة ، وتركت الرأس الملفوفة ، ونظرتْ باتجاه الباب مستطلعة . إمرأة أخرى . جزعة دامعة . سألتها وهى على السرير ما تزال :

- من أنت ؟

- زوجته .

تدومت الرائحة داخل أنفها . أحست بها زوابع تعصف برئيتها . إنها تلك الرائحة التى كانت تقتحم غرفتها حينما يدخل عليها ، فتؤرقها وتضنيها ، التفتت إلى كتلة الضمادات والجبائر أسفل منها ، لالتفاتتها حفيف وصرير :

- صحيح ؟

لم يُجب. هتفت :

- ردُ.

لكنه لم يرد فهجمت عليه وراحت تضربه فى كل موضع، فيما أمسكت الأخرى بالمقعد وأخذت تهبط به على رأسه وبطنه وساقيه .

"إيـــــه الضـــرر يعـــنى ؟"

اجتمع الثـلاثة فوق وجهها . الجـديرى والنمش وحَبْ الشباب . ووراء شفتيها المتورمتـين تراكبت أسنانها وتشرشرت. داخل جلبابها صدرٌ هزيل وردفان ضامران ، أسفل منه تتجاور بقع ثآليل فوق الجزء الظاهر من ساقين هما والخشـب سواء الخرقة فى يدها مـعكوكة بالبصاق المـدمم ، ورأسها على الوسادة التى أكلها العرق وطول الرقاد .

نظرتْ إلى الزجاجة المدفوعة إليها :

- جايبة لى سم يا خالة ؟

- يا عبيطة .. أنا كاتبة عليها (سم) علشان العيال متشربوش

- ما يشربوه ..

- يشربوه إزاى ؟.. المية اللى فيها مسحورة مخصوص علسانك .

- ابعديها والنبى يا خالة .

- طاوعينى .. المية دى هى اللى حاترَّجع لك جمالك .

بوهن مَدتْ يـدها ، مدتها ونظرت لـخالتهـا . خالتـها المنشغـلة بتلاوة الرقُية التى حفظتها من كثـرة ترديدها ، سعلتْ وبصقت فى الخـرقة ، فإذا بالزجاجة تنتقل من يد الخالة إلى يدها ، نظرت إلى الـورقة الملصقة عليها وكلمة السم المـكتوبة بخط اليد ، خط خـالتها هو . خـالتها الـمنهمكة فى ترديد الرقية . بأصابع مقرحة أدارت الغطاء وفـى ذهنها سؤال يتدوم " حتى لو كان فيها سم ، إيه الضرر يعنى ؟" .

أيتها البنت الجميلة لماذا طفوك هكذا ؟

فوق المجرى الهادئ تطفو البنت. مزركشة مثل حزمة من زهرات الياسنت ، بهدوء يمضى بها الماء . حلمتاها منثنيتان تحت المشد، وبشرة النهدين أديم تنعرس فيه زهرات الثوب المبتل ، تنحنى أغصان الصفصاف إذ تمر أسفل منها ، وشواشى الغاب تهتز لرفرفات العصافير الناتجة ، وأعواد الذرة تميد إذا ما توقفت أمامها . أيتها البنت الجميلة لماذا طفوك هكذا ؟... قفزات الضفادع لا ترهبك ، ولسعات الناموس لا تؤذيك . الشمس تتبرقع بالغيم خجلاً منك ، والسميكات الراعشة تحف بك لترضيك ، وأنت فى طفوك لا تأبهين . أى يد أثيمة أسلمتك لما أنت فيه ؟ .. أية أفكار لئيمة أحاطوك بها ؟ .. كتلة من السكينة الطافية أنت، فَمُرِّى واستمرى فى استسلامك لمسرى الماء فى المجرى الهادئ ، وابقى طافية .. ابقى طافية .. ولا تغوصى .

احتضـــــار

الطفلة تحتضر . هذا ما يبين لهن بوضوح. وجـهها شاحب .فيه بياض وزرقه . البنفسجي والبنى يصنعان هالة ثقيلة ترتفع فوق حاجيبها وتسقط باتجاه صدغيها. شخيرها آخذ في الخفوت وجفناها يدفان فيرتعش حجرا عينها ليظهر البياض المعكر فيهما . أما سواد النني فقد اختفى إلا قليلا . الشفة السفلى لا أثر لها . العليا هي الظاهرة . كأنها ما ولدت إلا بشفة واحدة .

قالت الطبيبة : انقلنها بالسرير إلى جوار الشباك .

في الضوء النافذ من الستارة بدا المنظر مريعاً . كأن السرير نعش . كأن الغطاء كفن .

بكتْ إمرأة : يا كبدي ، فناحتْ الأخريات وأسقط في يدي الأم . هتفتْ الطبيبة : اسكتن .

خلسة مدت الأم أصابعها إلى خدي الطفلة ثم عادت فلمتها . تعلم أنهن سيسحبن أصابعها ويرجونها أن ترحم نفسها فسهم الله نافذ ، ولن يغير ما تفعله شيئاً . لكنها عادت وبإصبع وحيد مَسَّتْ الذقن الباردة . ضغطتْ عليها لعلها تنجح في خفض شفتها الضائعة ،وتفتح فمها . " أيها الرحيم المعجز " .. هاهو فمها ينفتح . لسانها الملتصق بسقف حلقها يسقط . قطعة منتنة من لحم يعلوه الفطر ،ومخاط كثير يمتط بين سقف

الحلق وبينه ، عند اللهاة تتجمع كتل بيضاء عكرة . يا ضوء الشمس القاسى .

على همود الجسد الضئيل فإن التشنجات التى تنتابه تحرك المرفقين وترفع الساعدين صوب الوجه المغيب . كأنها هى شحنات من كهرباء أو لفّات من زمبركى ، البنفسج غزا الكفين والرسغين .

سمحن للأم بلمس كفيها ، بل رأينها وتغاضين . ثمة رعشة خفيفة تسرى فى إبهام الكف اليسرى ،كلما تعرض لهواء مراوح اليد فى أيديهن . حاولت إحداهن سحب الأم إلى الخارج ، إلا أنها تشبثتْ بالسرير وظلت منحنية فوق وجه الطفلة حتى كادت تلمسه بوجهها . برغمها هصرت الكفين الباردين فانفتحت العينان ثم أسبلتا. فككن اشتباك الأكف فسقطت بضع دموع فوق الوجه. اختلج فامتدت أياديهن بالمناديل وجففنه .

- دكتورة .

نظرتْ الطبيبة إلى حيث أشارت الأم . يا فوخ البنت ينخفض . التحامات عظام الجمجمة ، تحت شعرها الذى لم تتح له فرصة النمو ، تظهر بوضوح . ثمة نبض لكن الفجوة لا نبض فيها . أو لعله من الخفوت بحيث لا يُرى أو يُحس .

بدرت من الطفلة حركة فأسرعت الطبيبة ورفعتْ الرأس ليندلق من ركن تحت الشفة العلوية سائل أصفر مخضوضر . سارعت أيدى النسوة بمسح مالم يتشربه الغطاء . صرخت الأم فاحتضنتها اثنتان وحاولتا جَرَّها لكنهما لم تُفلحا . لفَّتْ الطبية إصبعاً وأدخلته فم الطفلة ، مسحت حلقها

ثم أخرجته مقيحاً مدمماً . القت اللفافة وما عليها من قيح ومخاط فى الحوض المزدحم بالحقن والأمبولات مهشمة الرقاب وسكبتْ بعض الكولونيا على كفيها .

ما صدر عن الأم ولفت أنظار العجائز كان مواءً أوشيئاً من قبيله فوق الستائر انطبعت أضوء الملهى المواجه . الليل إذن قد حل .

- ثلج ..كفاها ثلج .

صرخْت أمها وكشفت عنها الغطاء وأخذت تجس أعضاءها :

- ثلج .. ثلج ..

ساقا الطفلة ارتختا ، والزرقة كست أصابع قدميها تماما . أظافرها فى لون الحبر . أخرجت البنت صوتاً لاهو بالحشرجة أو بالصفير. الشفة العلوية كساها البنفسج وهبطت ، فى تضخمها ، إلى حنية الذقن ، فيما ظل ابهام الكف اليسرى يرتعش كلما حركت النسوة مراوحهن .

قامت واحدة وأشعلت عود بخور. " عذبلتْ وبسملتْ وحوقلتْ ، فتدومتْ الغرفة بالعذبلات والبسملات والحوقلات. وإذ تعبأت الغرفة برائحة العطر المحروق والرقى والآيات المنجيات . حركت البنت بعضاً من أجفانها فبان البياض المعكر من عينيها، وبان بعض من سواد النتى . أكثر من هذا تحرك ما ظهر من بياض وسواد صوب الأم . دون أن تلفت واحدة منهن انتباهها إلى ما فعلته البنت بعينيها، شعرت بأن طفلتها إنما تحاول النظر إليها ، فانحنت إليها وقبلتها ومست خدها بخدها ، فيما ظلت العينان على حالهما ولم تنغلقا .

الفهـــرس

أراجيح الضوء فى الأنجم البازغة : ـــــــــــــــ ٩

انبهار/ ياسمينة / كم هن بريئات يا ربى / أختان / انفلات / بنت وسلتان.

أقمار مراوغة تختبئ تحت قمصان البنات : ـــــــــــــــ ١٩

حنو / حمَّام / صورة / البراح / نقاء / الزائرة .

براعم الأقحوان إذ تتأود فوق المُدَّرج : ـــــــــــــــ ٣١

تنهيدة / الكوتش / عسل وكستناء / شخبطات / سترة .

فراغات باتساع الشوارع والأرصفة : ـــــــــــــــ ٣٩

عبور / تجاوز / فى الممر/ عبر بنايتين / للشقراء أغنى/ حساب / عريس / تساؤل / معاً / بعض من لدونة.

نبض النار فى زبد البحر : ـــــــــــــــ ٥٣

القروية التى تغنى أمام البحر/ امتلاء / العابرون / وجه من ضوء وغيمة من بنفسج/ الجورب كحلى والخطى واثقة/ غواية الأزرق الفسيح / فنار / زنبقة .

عطور تتأوه تحت سدادات القوارير : ـــــــــــــــ ٧١

الرجل فى غرفة الانتظار/ غيمة ملونة/ فم ملوى/ شرفتان / قرطم / تعاسة / ماكياج / كآبة / غضوب .

شمعات تنوس فى مسارب السفر: ـــــــــــ ٨٧
المحطة الأخيرة / اتكاءة / خجل / باتجاه نفق المترو / مصر الواسعة العريضة / سفر .
القوارير إذ تهجس بالامتلاء : ـــــــــــ ٩٥
دمية / أمنية / ارتجافة / عينان مفتوحتان / تكور .
لكل مخلوقات الله أغنية : ـــــــــــ ١٠٥
بلبل / قطة / عنزة / خنفساء / سرطنة / لماذا ؟ / أم عبده
فتيات المكاتب يشعلن رماد الانهيار : ـــــــــــ ١٢٥
زميلات ثلاث / مايسة / حسد / فكرة / الأتوبيس / المديرة .
صائدات البروق بهن رهق من مذلة : ـــــــــــ ١٣٩
القرمة / تنفيض / غناء / مخالسة / افتراس / فى زمرتهم .
كريات من غيم فوق أنداء الغوانى : ـــــــــــ ١٥١
سعاد / وجهها / يقين / دون جدوى / زهرة / ضمير / الفتاة فى المنشقة الزرقاء / برنسيسة / مسكنة / عسل .
اللائى يتوضأن فى زهوة الجحيم : ـــــــــــ ١٦٩
فتاة التريكو / المرأة صاحبة الابتسامة/ تانت عزيزة / ميراث / بهدوء/ تربية / بوش / محاولة للفهم .
بعد الرعد تهطل الأمطار : ـــــــــــ ١٨٣
أم محمد / المرأة الواقفة على السلم / غريمتان / طرشى / مواجهة .

للوطن منهن حضور .. للوطن فيهن نصيب : ١٩٧

تلك الفتاة / سامية وزفت الطين/ تراشقات / نورانية / إمرأة بذيل / بلد / البنت فى الثوب الأحمر / رياح / لا / التهاب .

لؤلؤ المآقى تهشمه أقدام القساة : ٢٢١

قلب / قرار / دم ثخين / حمق / أم السعد / ضحك / خيبة.

ظلال تتهدل على حواف البياض : ٢٣٣

القطيع / مسامرة / تأجيل / تعاون / "وإيه الضرر يعنى ؟" / أيتها البنت الجميلة لماذا طفوك هكذا ؟ / احتضار .